مقدمة عامة

لمقرر المدخل إلى تاريخ الحضارة

تعد **الحضارة** النتاج الفكري الإنساني على مدار تعاقب الأعوام والقرون، فهي تشمل **كل ما انتجه العقل الإنساني من أفكار أدبية وعلمية وفنية وروحية،** ونحن العرب نستعمل كلمتي **الحضارة والمدنية** لمعنى واحد، وإن كان المصطلح الثاني يدل على مرحلة أكثر تقدما من المرحلة الأولى، حيث اعتبر ول ديورانت: أن المدنية تعد أهم مظاهر الحضارة، فرغم أنها تبدأ من كوخ الفلاح إلا أنها لا تزدهر إلا في المدن[1]. في الواقع لقد شهد العالم منذ الخليقة **ثلاث ثورات حضارية كبرى،** هي: **الثورة الزراعية** التي قامت على ضفة نهر الفرات في الجزيرة السورية نحو الألف الثامن قبل الميلاد، والتي تلتها العصور الحضارية، واعتمد الإنسان فيها على قوة اليد العاملة. والثورة الثانية هي **الثورة الصناعية** في القرن الثامن عشر ميلادي في أوروبا الغربية، والتي تلتها العصور المدنية، واعتمدت على قوة البخار في تحريك المصانع والمعمل ووسائل النقل الحديثة، وذلك عندما استطاع جيمس واط أن يحول الآلة البخارية المحسنة إلى آلة تجارية قبالة للاستعمال سنة ١٧٧٥م. وأخيرا **الثورة المعلوماتية** في القرن العشرين في أمريكا والغرب والتي تلاها عصر التكنولوجيا والفضاء، واعتمدت على قوة الأرقام (الصفر، والواحد). إن الفارق بين الثورة الزراعية والثورة الصناعية؛ هو أن الثورة الصناعية لم تحتج أكثر من قرن من الزمان، بينما احتاجت الثورة الزراعية حتى تبلورت أطرها قرونا طويلة. وعلى الطالب أن يعي كل تطور **في إطاره النفعي في زمنه ومدى الحاجة إليه،** فالحضارة لا تتمثل في المنشآت العظيمة كأهرامات مصر أو قلاع سوريا أو حتى في ناطحات السحاب في نيويورك، «بل هي تتمثل في صورة أوضح وأصدق في صغار الاكتشافات التي تقوم عليها حياة البشر، فرغيف الخبز مثلا أنفع للبشر من الوصول إلى القمر، وبالفعل أنفقت الإنسانية عشرات الألوف من السنين حتى وفقت إلى صنع رغيف الخبز أو إناء من الفخار، وانتقلت نتيجة لذلك من حقبة من التاريخ إلى حقبة أخرى جديدة، والعبرة في منجزات البشر **بما ينفع أكبر عدد من الناس،** وييسر لهم أسباب

[1]) ول. ديورانت، قصة الحضارة، نشأة الحضارة، ج١، مج١، ترجمة زكي نجيب محمود، بيروت ١٩٨٨م، ص٥.

الاستقرار والأمن، لا بما يبهر العيون ويرد الإنسان إلى الشعور بالقلق وانعدام الأمن، فالأهرامات التي اتخذها فراعنة مصر قبورا لهم؛ كانت تعبر عن قوة الدولة وتسلطها، إذ يجبر أفراد الشعب المصري على العمل سخرة ثلاث أشهر في السنة في قطع الحجارة ونقلها في سبيل تشييد الهرم. والقلاع لم تكن إلا رمزا للحروب والقتال وهدر الدماء، ولا يذهب ضحيتها إلا الأطفال والأبرياء. والذين ينفقون الملايين ليهبطوا على سطح القمر قصدوا أول ما قصدوا إلى إظهار امتيازهم على غيرهم وسبقهم لبقية الناس في ميدان التقدم، وهذا زهو وغرور ينطويان على شر، فهما في الحقيقة تهديد للآخرين[٢]».

ونحن في **مقرر المدخل إلى تاريخ الحضارة** مدعوون للتعرف على العصور الحضارية التي حمل فيها أبناء مشرقنا العربي مشعل الحضارة، في الشرق العربي القديم (٣٢٠٠- ٥٣٩ ق.م)، بمختلف نتاجهم الفكري (العلمي والأدبي والثقافي والفني)، منوهين إلى أن حضارة الشرق العربي القديم شكلت القاعدة الصلبة التي بنى عليها الإغريق ما سمي فيما بعد بـ«المعجزة اليونانية»، إن تنوع الفاعلين وتمازج الثقافات وتفاعلها كان السبب الحقيقي وراء ازدهار الحضارة العربية على مَرّ عصورها، وعند دراستنا للحضارة العربية، سنجد مقدار التمازج الحضاري والفكري الذي حصل بين مختلف أمم الأرض، وهكذا يظهر الوجه الإنساني للحضارة، بعيدا عن أي تعصب وتطرف وانحياز. وإن دراسة التاريخ لم تكن ترفا علميا قط، بقدر ما حاجة ماسة للإنسان المثقف، ففي خبر عن الإمام الشافعي صح نقله إن من حفظ التاريخ زاد عقله. وأكد الفيلسوف والسياسي الروماني الشهير شيشرون أن من لم يقرأ التاريخ يبقى طفلا أبد الدهر.

(٢) حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، عالم المعرفة، العدد الأول، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٧٨م، ص٩.

المحاضرة الأولى

المدخل إلى تاريخ الحضارة

أولا: مولد الحضارة وموطنها:

قبل نحو ١٤ ألف سنة، تراجع الجليد نحو المنطقة القطبية، ما أدى إلى تحسن المناخ؛ فأدى إلى شتاء معتدل وصيف حار، وتحسن الطقس في منطقة المشرق العربي، ما أدى إلى ظهور غطاء نباتي وحيواني جديد، واختفاء حيوانات ونباتات كانت تعيش خلال المرحلة السابقة، حيث تحولت بواديها الباردة التي كانت تغطيها أشجار الأرتيميسيا إلى مناطق معشوشبة تنمو فيها أشجار البلوط والفستق وبعض أنواع الفواكه المتنوعة. إن تحول المناخ نحو الأفضل وزيادة كمية الأمطار، سمح بنمو نباتات برية مثل القمح والشعير، وانتشرت حيوانات متكيفة مع المناخ الدافئ مثل الماشية (الماعز والأغنام والأبقار)، وهذا سمح بدوره لإنسان الشرق العربي القديم، بالخروج من الكهوف نحو المناطق المكشوفة التي تنمو فيها النباتات البرية لجمعها، ونحو المناطق التي ترعى بها الحيوانات البرية لتدجنها، والتي غالبا كانت قرب مصادر المياه. لقد أدت هذه الخطوة إلى تبدل عميق في نمط معيشة الإنسان؛ حيث كان يعتمد على الصيد بشكل رئيسي من أجل تأمين قوته اليومي، وكانت الغزلان الفريسة المفضلة ومصدر البروتين الأساسي لسكان المشرق العربي القديم خلال الفترة الممتدة ما بين الـ ٢١ حتى ٨ آلاف سنة قبل الميلاد، وبعدها بدأ الاعتماد على الخراف بصورة أساسية[٣]. ومع دخول هذه المرحلة استمر النمط المعيشي السابق مع تبدل في الأولويات، فقد تراجع الصيد للمرتبة الثانية كمصدر للقوت اليومي، وتقدم جمع الحبوب البرية وحصادها للمرتبة الأولى، بعدما وجد الإنسان القيمة الغذائية العالية للحبوب وما تؤمنه للجسم من سعرات حرارية، وقد أثبتت التحاليل الكيمائية أن القمح البري مغذي بدرجة كبيرة إذ تصل نسبة البروتين فيه إلى ٢٤ %. وهكذا ضعف اعتماد الإنسان على الصيد وبدأ يعتمد على القمح لاسيما بعد أن نجح في زراعته؛ بعد أن **راقب الطبيعة واكتشف دورة الزراعة** للمرة الأولى على ضفة نهر الفرات في سوريا، خلال الفترة الزمنية المحصورة ما بين ١٠٥٠٠ – ٨٠٠٠ سنة ق.م، مدفوعا برغبته في التمرد على الطبيعة، والتخلص من سيطرتها عليه. وقد اكتشف علماء الآثار عدد من **المناجل** المصنوعة من الصوان؛ التي كانت شفراتها لامعة بسبب

(3) Zeder, M. A., & Bar-Oz, G., & Rufolo, S. J., & Hole, F., *New perspectives on the use of kites in mass-kills of Levantine gazelle: A view from northeastern Syria*., Quaternary International 297, 2013, p.111

استخدامها في حصاد الحبوب. وإلى جانب المناجل عثر على نوع آخر من المصنوعات الحجرية؛ وهي **أداة الرحى** المصنوعة من حجر البازلت لطحن الحبوب، ما يدل على ظهور أسلوب حياة جديد. وتجدر الإشارة إلى أن الناس لم يتخلوا خلال هذه المرحلة عن الصيد تماما، بل استمروا في صيد طرائدهم المفضلة بواسطة السهام والمقاليع، مع حصاد الحبوب بمناجلهم البدائية. ولحفظ الفائض عَمد الإنسان إلى **ابتكار الآنية الفخارية**؛ وكانت هذه الآنية ضرورية لخزن الغذاء نظرًا لأن القوارض والحشرات لا تستطيع أن تقرض أو تثقب الفخار لتصل إلى الطعام المخزون فيها. وقد ظهر الخزف الحقيقي؛ وهو أوان من الصلصال تم شيها في أفران، لأول مرة في الفترة الممتدة بين ٦٥٠٠ – ٦٠٠٠ آلاف سنة ق.م، ولم يستخدم الإنسان الدولاب في صناعة الفخار إلا نحو سنة ٣٥٠٠ ق.م والذي كان عبارة عن قرص مستدير، يدوره صبي الخزاف، بينما يقوم الخزاف باستخدام كلتا يديه في العمل.

إن الاستقرار والاعتماد على الزراعة كان يعني التخلي تمامًا عن حياة التنقل وسكنى الكهوف ومطاردة الطرائد، فالعمل في الزراعة بحاجة إلى التوطن بما يناسب مواسم العمل في الزراعة (من بذار، وفلاحة، وري، وحصاد، ودراس)، لذلك بنى الإنسان **بيته الأول** بالقرب من المناطق التي زرعها على ضفاف الأنهار (دجلة والفرات والعاصي، والنيل) في الشرق العربي القديم. وكان **اللِبْن** هو مادة البناء الأولى، فوق أساس من الحجر الغشيم. وقد بنيت **القرى الأولى** وفق المخطط العنقودي، وكان للبيوت هندسة معمارية مميزة حيث كان نصفها تحت الأرض ونصفها الآخر فوق الأرض، ويتكون كل بيت من عدد من الحجرات الصغيرة؛ قطر كل حجرة يتراوح ما بين ٢ – ٢,٥م، وقد بنيت أساسات البيوت من الحجارة الكبيرة والغشيمة، وتشير هذه الحجارة الكبيرة التي وضعت في أساسات البيوت إلى استخدام الموقع لفترات طويلة. وتم استخدام جذوع الأشجار وأغصانها في السقف. وكانت البيوت مرصوفة بالحجارة، ومزودة بمواقد؛ وللموقد دور رئيسي في البيت. ولم يكن لهذه الحجرات نوافذ أو أبواب حيث يتم الدخول والخروج من فتحة تركت في السقف **(الروزنة)** إذ كانت تستخدم للتهوية والإنارة وإخراج دخان الموقد في الشتاء، وغالبا يتم الارتقاء لها بواسطة سلم هو في الغالب عبارة عن عظمة حيوان كبير. ولا يوجد أي دليل على استخدام الطلاء في البناء. وقد تم الكشف عن بيوت في حالات جيدة خلال هذه المرحلة في موقع أبو هريرة على ضفة نهر الفرات في محافظة الرقة السورية، وفي موقع عين الملاحة في وادي نهر الأردن. وقرية جرمو شمال العراق التي كان تتألف من ٢٥ بيتنا ويسكنها نحو ١٥٠ إنسان.

وكان علينا أن ننتظر فترة من الزمن حتى تتطور عمارة البيت؛ فأصبح له باب رئيسي يؤدي إلى داخله، وقد ضم المنزل غرفة للإقامة مجهزة بمصاطب طينية للنوم، وحل المطبخ مكان للموقد، وصار هناك غرفة للمؤونة وبعض الملحقات الأخرى. استخدم الإنسان الخشب لسقف المنزل، أو أعمدة يعلوها حصير وطبقة الطين الممزوج بالتبن، ليعطي للبن والطين القوة والتماسك، كما أحيطت بعض القرى أو

المدن بالأسوار ذات السماكة العالية، علما بأن السور كان ملاصقا للبيوت بحيث يشكل جدران استناديه، وبذلك تكون أسطح المنازل بمثابة أبراج للمراقبة والدفاع. وتنوعت أشكال الأسقف حسب المنطقة والمناخ، وقد أعطت المكتشفات في موقع أريحا في فلسطين، صورة موضحة عن المباني في تلك الفترة. وقد احتلت العمارة الطينية موقعاً بارزا في عمارة العصور التاريخية الباكرة، إذ استُخدم اللبن في تشييد الأبنية المهمة والرسمية كالقصور الملكية والتحصينات والزقورات والمعابد، واستمر الناس لآلاف السنين يبنون مدنهم بتصميم هندسي متشابه إلى حد كبير، ولم تكن مدن الشرق القديم شبيهة بمدن أوروبا العصور الوسطى فحسب، بل إنها كانت أفضل منها، حيث كانت الشوارع أفضل رصفا، وأنظمة المجاري أكثر كفاءة، وموارد المياه أغزر، والأحياء أحسن تخطيطا، والبنايات العامة والتذكارية أكبر وأفخم، فعلى سبيل المثال لم نشاهد في أوروبا العصور الوسطى أهرامات كالأهرامات المصرية، أو حدائق معلقة كحدائق بابل، أو قصورا منحوتة بالصخر كقصور البتراء، لا بل إن العالم يقر بأن هذه الأبنية العامة والتذكارية من عجائب الدنيا السبع.

ولما كانت الزراعة بحاجة إلى يد عاملة كثيرة، قام الإنسان **بالإكثار من نسله** عن طريق الإكثار من الزيجات وإنجاب الأبناء، وهكذا حصل على اليد العاملة الرخيصة، وكثرة الإنجاب عند الفلاح فكرة معقولة جدا، فأولا تربية الأطفال في المجتمعات الزراعية غير مكلفة أبدا، لا بل إن الصغار يستطيعون القيام بأعمال متنوعة داخل البيت وفي الحقل تناسب أعمارهم، مع الإشارة إلى أن عدد وفيات الأطفال كان مرتفعا جدا بسبب سوء التغذية، وكان النسبة تصل إلى ثلث عدد الموتى، ولاسيما الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٥– ٧ سنوات، أي أن الفلاح كان مهددا دائما بخسارة اليد العاملة في حقله وبالتالي كان لا بد من الإكثار من النسل. وبعد اكتشاف الزراعة قام الإنسان **بتدجين الماشية** (الماعز أولا ثم الأغنام ثم الأبقار) واعتمد على صوفها ولبنها ولحمها. ودجن الكلب لأغراض الحراسة؛ وذلك للحماية من أكثر الحيوانات المفترسة تهديدا للإنسان ولماشيته، وهما الضبع والذئب. وزاد الاهتمام **بملح الطعام** الذي أصبح مادة أساسية لدوام الحياة اليومية، فالاعتماد على الوجبة الحيوانية يؤمن للجسم ما يحتاجه من أملاح، لكن بعد الاعتماد على الوجبة النباتية أصبح الملح مادة لا غنى عنها، وربما أنهم استخدموه كمادة حافظة[٤]. لقد تم جمع المحصول الفائض في مستودعات عامة وخاصة كضمانة ضد المواسم المحلة، لكن هذا المحصول الفائض أمن للقرى المتجاورة مادة يمكن الاتجار بها، ولما لم يكن الإنسان قد ابتكر النقود بعد، فإنه لجأ إلى عملية المقايضة، فكلٌ يسعى لسد النقص الموجود لديه بالفائض المتراكم عنده، وبالتالي كانت **المقايضة أول كلمة في علم الاقتصاد والإدارة**، وسرعان ما اعتمد سكان الشرق القديم الشعير كأساس لتبادل السلع، ثم أضافوا إليه النحاس والفضة واستعملوا الذهب لكن بصورة نادرة جدا؛ وقد تطور هذا النوع من التجارة بسرعة بعد اكتشاف وسائل النقل البرية

(4) Wenke, R. F., & Olszewski, D. J., *Patterns in Prehistory: Humankind's First Three Million Years*., Oxford University Press, Fifth Edition, 2007, p.251

والمائية المختلفة. ولما كانت عمليات التجارة تحتاج إلى توثيق قام الإنسان بابتكار **الكتابة المسمارية**، فالكتابة اخترعت لأغراض اقتصادية ومعاشية ماسة، كتسجيل المعلومات الخاصة بالمبادلات التجارية، وقوائم السلع المخزونة في المستودعات، ومذكرات الاستلام والتسليم، والحسابات بمختلف أنواعها والعقود والقوائم الخاصة بحصص الطعام الموزعة كأجور على الحرفيين المختصين وغيرهم من موظفين. أي أن ابتكار الكتابة لم يكن من أجل تعظيم الملوك أو تقديس الآلهة، لكن فيما بعد ظهرت النصوص الخاصة بتسجيل الأحداث السياسية كالرسائل المتبادلة بين الحكام والملوك ونصوص المعاهدات، والنصوص الخاصة بتسجيل الأدعية والأناشيد الدينية والصلوات في المعبد. وتجدر الإشارة أن **اختراع الكتابة مرّ بثلاث مرحل رئيسة**؛ المرحلة الأولى تسمى **المرحلة التصويرية** حيث كان المرء يرسم الشيء المراد الحديث عنه، فيصور شمسا للحديث عن الشمس، ويصور محرثا للحديث عن المحراث، ويصور بقرة للحديث عن البقرة. المرحلة الثانية هي مرحلة **الكتابة الرمزية** وهي مرحلة رسم الأفكار والترميز للفكرة والمعاني؛ التي لم تعد فيها الشمس تعبر عن الشمس فقط وإنما صارت تعبر عن الضوء والحرارة والنهار وإله الشمس، وصار يعد المحراث يعبر عن المحراث فقط، وإنما صار يعبر عن فعل الحراثة. أما المرحلة الثالثة وهي مرحلة **الكتابة المقطعية** وفيها تمت إضافة لواحق إعرابية للإشارات الرمزية فصارت كلمات لها نطق خاص بها. ولم يكن تعلم الكتابة المسمارية أمرا هيناً؛ حيث كان ينبغي على التلميذ أن يذهب كل يوم إلى المدرسة حتى يتعلم الكتابة المسمارية على نحو صحيح ويعي المئات من رموزها وآلاف القراءات، كان عليه أن يقضي معظم شبابه في المدرسة الملحقة بالمعابد، التي كان يدرس فيها المعارف العلمية والأدبية الشائعة في عصره. وكان هناك الكثير من الدوافع لتعلم مهنة الكتابة في الشرق القديم، حيث يعد الكاتب الذي يحفظ الإشارات المسمارية عالما مقدسا، إذ كان شائعا «إن من يفلح في علم الكتابة سوف يسطع كالشمس». وتجدر الإشارة أن الكتابة بدأت بألفي إشارة مقطعية في جنوب بلاد الرافدين، تم اختصارها في منتصف الألف الثاني ق.م إلى ثلاثين إشارة مسمارية في مدينة أوغاريت على الساحل السوري، وبعدها بقرن تم اختصارها في مدينة جبيل اللبنانية إلى اثنان وعشرين إشارة؛ فيما صار يعرف **بالأبجدية** التي تعتمد على الحروف وأصواتها، وسرعان ما انتقلت هذه الأبجدية من الساحل السوري بواسطة الفينيقيين إلى بلاد اليونان وسائر أرجاء العالم القديم. لقد كان النظام الجديد ثورة في مجاله، لأنه سهل عملية التعلم؛ واختزل الفترة التي يقضيها الطالب في تعلم الإشارات المسمارية وحفظها، نظرا لعددها الأقل، ما جعل التعليم متاحًا لعدد أكبر.

وقد أبرزت الحياة في المدينة علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فالعلاقات الاجتماعية المتجانسة في مجتمع القرية البسيط، كانت كفيلة بإعطاء الفلاح القدرة الكافية –مع أبناء قريته– للقيام بالمشاريع الزراعية العادية، إلا أن المشاريع الزراعية الكبرى كبناء سد أو جسر أو عبارة أو حفر قناة؛ كانت تحتاج إلى تظافر جهود مجموعة من أبناء القرى المتجاورة، ولما كان العمل الجماعي بحاجة إلى إدارة موحدة، فإنه من إدارة هذا التعاون نشأت **مؤسسة الدولة** في الشرق القديم، كمؤسسة هدفها الأساسي تنظيم الحياة المعاشية والخدمية للسكان

الموجودين فوق بقعة معينة من الأرض، والقرية الأكبر والأكثر عددا وذات الموقع المتوسط ستتحول إلى حاضرة (عاصمة)، والقرى المحيطة بها سوف تتحول إلى ضواحي أومدن تابعة، وهكذا ظهرت المدن المسورة، وربما أن أريحا كانت أول مدينة مسورة في التاريخ. وسرعان ما دب التنافس بين المدن المسورة، التي كانت عبارة عن دويلات مدن؛ وهكذا بنمو المراكز المدنية أصبحت الحرب «صنعة»؛ وكان من أول نتائجها أن نقلت السلطة من الفلاحين إلى الطغمة العسكرية المتخصصة في الحرب، لاسيما أن حيازة السلاح المصنوع من البرونز لم تكن أمرا يسيرا، فهي باهظة وفوق قدرة الفلاح المالية، ولأول مرة في التاريخ الإنساني تمكنت أقلية صغيرة جدا من السيطرة، ليس على الأغلبية التي كانت تعيش داخل أسوار مدينة فحسب، بل على أولئك الذين يعيشون في الأقاليم التابعة للمدينة مهما امتدت رقعتها. وكان من أولى **واجبات الدولة** اتجاه رعيتها إقامة العدل بينهم، وتقديم الرعاية الصحية، ونشر التعليم. لقد كان هدف ملوك الشرق من الحرص على القيام بهذه الواجبات هو الحصول على مجتمع منسجم، صحيح في بدنه وعقله، قادر على حماية نفسه، والتقدم أكثر في سُلم الحضارة، إيمانا من هؤلاء الملوك أنه لن تكون لهم القوة ما لم يبنوا هذا المجتمع، فمن غير المنطقي أن يتزعم أي ملك منهم المشهد السياسي بين أقرانه من ملوك المدن الأخرى بمجتمع قوامه المشاحنات والجهل والمرض.

لقد كان جميع ملوك الشرق القديم مثقفون يجيدون القراءة والكتابة، يتبادلون الرسائل فيما بينهم، ويكتبون لحكام الأقاليم وضباط الجيش التابعين لهم. وكان الكهنة كذلك يجيدون القراءة والكتابة؛ فالألواح الطينية التي دونت عليها ترانيم وأدعية وكانت توضع أمام تماثيل هذه الآلهة، كانت عملهم الدائم. تجدر الإشارة إلى أن ملوك الشرق القديم كانوا يختارون المتعلمين ممن يجيدون القراءة والكتابة للمهمات السياسية والدبلوماسية، إذ تبدو شخصية المندوب **عبد الملك** من أهم الشخصيات التي تحظى بثقة الملك زمري ليم، لذلك أرسله في أكثر من بعثة دبلوماسية، حتى أنه احتل مرتبة وزير في بلاط ماري. كما كان يتوجب على حكام الأقاليم وجميع موظفي الدولة معرفة القراءة والكتابة في عهد حمورابي ملك بابل، إذ جعل بينه وبينهم نظاما بريديا خاصا؛ من أجل أن يرسل لهم أوامره الإدارية. كما كان واضحا أن على الإداريين في قصر ماري؛ أن يكونوا على معرفة جيدة بالقراءة والكتابة، منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.

ولما كانت قوى الطبيعة (الأمطار، والرياح، والصقيع، الجراد، الآفات) تتحكم بمحصول الفلاح، ولما كان الفلاح يجهل كل تلك القوى، التي كانت بالنسبة له قوى غيبية ومجهولة، ولما كان الإنسان بطبعه يخشى من المجهول، فإنه ترجم جميع تلك القوى الغيبية **كآلهة وقوى عُليا مقدسة**، وعبدها حتى يكتفي شرها وينال بركتها وحمايتها، فظهرت **مؤسسة المعبد**. أدار الملك مؤسسة الدولة بمجلس استشاري، بينما تولى الكهنة إدارة مؤسسة المعبد، انفقت الدولة ميزانيتها على جنودها وموظفيها، بينما تولى المعبد أمور الفقراء والمساكين والأيتام والمشردين وعابري السبيل، وطوال التاريخ كانت مؤسسة المعبد مؤسسة رديفة لمؤسسة القصر (الدولة)، إذ كان من

واجب الكهنة تأكيد شرعية الملك في عيون الرعية. فالأمر الذي بدأ كامتياز سياسي محدود سرعان ما تطور إلى مفهوم الحكم الإلهي وإلى حكومة ثيوقراطية مكونة من إدارات عدة، وحشد كبير من الموظفين وجيش نظامي تحت السلاح، حروبه التي يشنها على الأعداء مقدسة، ولا يتردد في قمع إلى اضطرابات داخلية، ويسعى إلى تكريس سلطة الدولة على الرعية، ويضمن توريث الثروة والقوة. ولما كان **هدف الدولة** فرض سلطة الأقوياء على الضعفاء، واستمرار استقرار المجتمع، فرض ملوك الشرق القديم قوانينهم وأعلنوها على الملأ، والقانون هو عكس العرف الاجتماعي؛ لأن العرف نابع من المجتمع ومصلحته العامة، والجميع موافق عليه، أما قانونين الدولة فإنه مُكرسة لخدمة مصلحة الفئة المتحكمة في المجتمع. ورغم كل ما يقال عن قانونين الدولة، إلا أنها أشاعت الاطمئنان في المجتمع، فالفلاح الذي يستأجر قطعة أرض من الدولة، ويدفع أجرها بانتظام، هو مطمئن إلى أن الدولة لن تصادرها منه.

ثانيا: تعريف مصطلح الحضارة:

إن مصطلح الحضارة في لغتنا العربية مشتق من الحضر والحاضرة (أي عكس البدو والبداوة والبادية) فالحضر خلاف البدو، **والحاضرة** خلاف البادية وهي المدن والقرى والأرياف، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، وقد شاع في العربية: سكان الحواضر وأهل الحواضر؛ أي أهل المدن، في مقابل أهل البادية، **والحاضر** هو ساكن الحاضرة، **والحاضر** تعني الحي العظيم، **والحضارة** الإقامة في الحضر، حيث يقال فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية، وفلان حضري وفلان بدوي[٥]، إن كلمة الحضارة تدل في اللغة على نوع خاص من الحياة وهو **الاستقرار والإقامة الدائمة،** وليس بالضرورة أن يكون هذا الاستقرار في المدينة، بل إن الاستقرار نشأ في القرى الصغيرة، ثم تطورت هذه القرى الصغيرة وتحولت إلى قرى كبيرة، ومنها نشأت المدن[٦]. وإذا أدركنا أن التحضر (أي التحول لحياة الاستقرار) قد تم على ضفاف الأنهار الكبرى في الشرق القديم، سهل علينا فهم لماذا أُطلق على سوريا لقب **مهد الحضارة،** والعراق **أصل الكون،** ومصر **أم الدنيا.**

إن **الحضارة اليوم** لم تعد تقتصر على تناقضها لمعنى البداوة فقط، وإنما تعبّر كمصطلح ومفهوم عن كل عمل أو منجز علمي أو اجتماعي أو اقتصادي أو سواه يعود على الإنسانية عامةً بالنفع والفائدة، ويساهم في ارتقاء المجتمعات البشرية وتطورها، ويؤدي بالتالي إلى سعادتها ورفاها بتذليل كل المصاعب وإزالة كل العقبات والمعوقات من طريقها على امتداد العصور

(٥) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٩٠٧.

(٦) نور الدين حاطوم، أحمد طربين، صلاح مدني، نبيه العاقل، موجز تاريخ الحضارة، حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص٧.

ومساحات المكان[٧]. وقد عرف العالم العربي الشهير **ابن خلدون** الحضارة بأنها «تَقدم ملموس في كل مجالات الحياة، يكون الهدف منه خدمة الإنسان وتحقيق رفاهه»[٨]، وأخيرا رأى عالم الأنثروبولوجيا الإنجليزي **تايلور** أن الحضارة «عبارة عن كيان معقد يضم العديد من الفنون والآداب، والعادات والتقاليد، وجميع القوانين التي يكتسبها الإنسان في المجتمع». ولا بد من التمييز بين حضارة و**الثقافة**، فثقافة أي مجتمع تختلف عن حضارته، فالثقافة هي جملة المعارف والفنون والعلوم والعادات والأخلاق وغيرها من الأمور المكتسبة.

ثالثا: إنسانية الحضارة:

لقد شاركت جميع شعوب الأرض في رفع المشعل الحضاري، وكل قوم رفعوه حقبة من الزمن سلموه لقوم أتوا بعدهم، وبناء عليه يجب الابتعاد عن **أي نظريات عنصرية** عن نشأة الحضارة، تلك النظريات التي سعت إلى ربط الحضارة بعنصر معين دون غيره، أو بإقليم جغرافي، أو حتى بقارة دون غيرها، كما فعل الأوروبيون حين حاولوا ربط الحضارة بالعرق الأبيض وأدعوا أنهم معنيون بحمايتها، لكن جميع تلك النظريات العنصرية سقطت؛ فرغم أن الأفراد الذين يكونون مجتمعا من المجتمعات هم الذين ينشؤون الحضارة وينقلونها، فلابد لأي حضارة من الحضارات أن تعتمد على مساهمة عدد كبير من الأفراد ومن المجتمعات المختلفة، إذ لا يمكن تصور المجتمع منعزلا تماما عن غيره من المجتمعات الأخرى، كما لا يمكن تصور عدم اتصال بين هذه المجتمعات، لا بل إن الشيء المقبول الذي لا سبيل لنكرانه هو أن المجتمعات البشرية كانت في الماضي –كما هو الحال في الوقت الحاضر– على اتصال دائم، يأخذ بعضها عن بعض، ويعطي بعضها بعضا، وتفيد من تجارب بعضها، لأن الحضارة في جوهرها أخذ وعطاء علمي وفكري وفني وأدبي وحتى روحي أيضا، ومن هذا التفاعل بين المجتمعات اتسع نشاط الجماعة البشرية ومجهودها الحضاري، وإذا كان عمر الإنسان محدودا **فعمر الحضارة مديد**، لأن الحضارة دائمة تتطور باستمرار، وما من دليل أن الحضارة تزول، وما قصة الحضارة في الواقع إلا قصة صراع الإنسان ضد جبرية الطبيعة، والاستفادة من إمكانيات هذه الطبيعة وتسخيرها في خدمة الإنسان[٩].

(٧) علي أحمد وإبراهيم زعرور، مظاهر الحضارة العربية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص٣١.

(٨) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت د.ت، ص١٧٢.

(٩) نور الدين حاطوم، وآخرون، المرجع السابق، ص٧، ٨.

رابعا: البيئة والحضارة:

لا شك في أن للبيئة الجغرافية التي ينشأ فيها شعب من الشعوب **أثرٌ كبير** في الشكل الحضاري الذي ينشئه ذلك الشعب، لأن الإنسان يأخذ مادته الحضارية مما حوله، وإن الظروف الطبيعية التي تحيط به لها أعظم الأثر في تحفيز همته إلى العمل والابداع والابتكار، أو تثبيط همته وحرمانه من كل تطلع إلى جديد، ومن **الآراء الشائعة** التي نرددها دون تبصر أن البيئة ذات الجو المعتدل أعون للإنسان على التقدم من البيئة ذات المناخ الحار، وأن البيئة باردة المناخ تحفز على العمل وتنشط على السعي، وهو رأي صحيح من حيث نتيجته، لا من ناحية منطقيته، لأن الجو الحار يفتر الهمة إلى العمل، ولكنه لا يقضي على النشاط الذهني، ففي صحراء العرب رغم مناخها الحار إلا أنه قد ظهر فيها الجنس العربي الذي امتاز منذ العصور الجاهلية الأولى بخصال الذكاء البعيد والفطنة وفصاحة اللسان وقوة الحدس وتفتح الذهن والنشاط البدني، وعندما خرجوا من جزيرتهم حملوا معهم مكارم الأخلاق، وصفاتهم تلك جعلتهم الأقدر على استيعاب الأخر والاندماج معه، بينما في المقابل عندما خرج المغول من صحراء جوبي في شرق آسيا حملوا معهم الدمار وسفك الدماء وهدم الحضارات(١٠)، حتى أن نهر دجلة تحول للون الأسود من الحبر الذي انحل فيه، لكثرة الكتب التي رموها فيه بعد أن دمروا بغداد ومكتباتها، وهذا شاهد أن البيئة عنصر مهم في نشوء الحضارة، لكنه يحتاج على عناصر أخرى لا بد من تظافرها، في الواقع لا بد من توافر مختلف الشروط لنشوء الحضارة.

خامسا: شروط الحضارة:

تعد **البيئة المحيطة** عنصرا مهما لنشوء الحضارة، فلابد من شرط بيئية معينة لنشوئها، ومن المستحيل أن تكتمل مقومات الحضارة دون توفر تلك الشروط البيئية، فمعظم الحضارات القديمة كما في بلاد الرافدين ووادي النيل نشأت على ضفاف الأنهار الكبرى أو بالقرب من مصادر المياه الأخرى، حيث تتوفر التربة الخصبة والماء العذب وسُبل العيش ومصادر المواد الأولية المتنوعة وطرق المواصلات السهلة، فلولا نهر النيل مثلا لما عرفت مصر الحضارة، وقد صدق هيرودوت عندما قال: «مصر هبة النيل». أما **الموقع الجغرافي** فإنه يلعب عاملا حاسما في نشأة الحضارة وازدهارها أو زوالها، كما هو الحال مع **مدينة تدمر** التي نشأت على واحة ماء في قلب البادية السورية منذ الألف الثاني قبل الميلاد معتمدة في تطورها الحضاري على موقعها الجغرافي الذي

(١٠) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص٢٧، ٢٨.

تحكم بطريق التجارة الدولي القديم بين إمبراطورات بلاد الرافدين وسوريا، ولاسيما في مرحلة ازدهار العلاقة بين مملكتي ماري (في دير الزور) وقطنة (في حمص)، حيث كان الطريق الأقرب بين هذين المدينتين يمر في تدمر الواقعة في منتصف المسافة تقريبا(١١).

إلا أن الشرط الأهم لنشوء الحضارة يبقى هو **الإنسان** لأن الإنسان غاية الحضارة ومنطلقها بما يؤمن به من أفكار وعادات وتقاليد وأخلاق وقيم إنسانية، فحتى تنشأ الحضارة لا بد من أن يتوفر الأمن والاستقرار في المجتمع؛ ذلك الأمن الذي يمنح الانسان شعورا عميقا بالطمأنينة والاستقرار، ذلك الأمن الذي يوفره استتباب النظام السياسي المكلف بحماية الجماعة (مجموعة من الأفراد الذين يعيشون في رقعة مكانية واحدة)، ولن يتسنى للنظام السياسي تحقيق ذلك الاستقرار دون استعدادات إيجابية معينة من أفراد تلك الجماعة تدفعهم للتعاون على أسس أخلاقية واجتماعية متفق عليها، توجه الأفراد وتعطي الحياة قيمة ومعنى عن طريق التربية والتوجيه والتعليم، إن هذه الأفكار والقيم تراكمت نتيجة تبادل أفكار الشعوب وليس نتيجة عامل تاريخي معين. وبالمقابل إن انحطاط الأخلاق والقيم والمثل العليا وانهيار النظام الاجتماعي والأخلاق والتربية تؤدي إلى فساد المجتمع وانحطاط الحضارة. وهذا ما يجعل الحضارة باعتبارها إبداعا بشريا بحاجة إلى كل ما يغذيها باستمرار ويحفظها من الانحطاط والضياع عبر الأجيال والعصور(١٢)، بمعنى أن قيام حضارة لا يمكن أن يأتي من فراغ بل يكون ذلك من خلال تراث ثقافي متراكم عبر الزمن، يؤدي في حقبة معينة إلى نتائج علمية مرموقة تساعد بدورها على تقديم إنجازات حضارة متقدمة. إن جميع الشروط والعوامل والأسباب سابقة الذكر ينبغي أن تتكامل مع بعضها كي تساعد على قيام حضارة حقيقية تتسم بالنضوج والتقدم، وإن أي خلل في أي من هذه العوامل سيؤدي إلى خلل في مسألة المنجز الحضاري(١٣).

(١١) فيصل عبد الله، تاريخ الوطن العربي القديم، بلاد الشام، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٤م، ص١٢٢.

(١٢) نور الدين حاطوم وآخرون، المرجع السابق، ص١١.

(١٣) علي أحمد وإبراهيم زعرور، المرجع السابق، ص٣٢، ٣٣.

المحاضرة الثانية

مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق العربي القديم

حتى يتسنى لنا فهم الحضارة العربية في تاريخها القديم بمختلف إنجازاتها وإبداعاتها الفكرية من طب وصيدلة ورياضيات وكيمياء وهندسة وصناعة وقانون، علينا أن نتعرف على تسلسل تطورها التاريخي وأهم الشخصيات والمحطات المفصلية في تاريخيه، وعلينا أن نتعرف على أهم مصطلحات وتسميات هذا الشرق القديم وما تعني، في الواقع إن أكثر المصطلحات انتشاراً كان مسمى **بلاد الرافدين**، والمقصود بالرافدين هما دجلة والفرات، وحضارة بلاد الرافدين من أقدم حضارات العالم، وربما أنها أقدم من حضارة مصر الفرعونية، لكنها لم تَعرِف وحدة الدولة ولا استمراريتها ولا المجتمع الموحَّد كحالة المجتمع المصري، الذي كان يُحكم من حاكم واحد، ومن عاصمة واحدة. لقد امتدت بلاد الرافدين على كامل العراق القديم والجزيرة السورية وجنوب بلاد الأناضول، وكانت دائماً مسرحاً لدول وإمبراطوريات متعاقبة، نطقت بلغات مختلفة لكنها من أرومة لغوية واحدة (باستثناء اللغة السومرية)، وعرفت هذه الدول بأسماء متنوعة نُسبت فيها إلى الشعوب التي تسيَّدتها؛ كان أشهر هذه الشعوب هم السومريون والأكاديون والبابليون والآشوريون والكلدانيون، وعرف العالم اليوناني–الروماني بلاد الرافدين؛ باسم بلاد ما بين النهرين Μεσοποταμια (ميزوبوتاميا) والمعنيان متطابقان.

في البدء كان السومريون، وكانت بلادهم **سومر** تمتد على رقعة جغرافية محدودة من العراق؛ اقتصرت على الجزء الجنوبي منه، بينما كان الظهور الأول للسومريين على المسرح السياسي للأحداث في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، ولم يؤسسوا إمبراطورية موحَّدة بل اتّبعوا في **نظامهم السياسي نظام دويلات المدن**، وكان حاكم دولة المدينة السومرية يعادل زعيم القبيلة في البادية، وكان المجلس الاستشاري الذي يعينه على إدارة أمور المدينة السومرية يعادل مجلس شيوخ ورؤساء البطون الذي يُعين شيخ القبيلة على تنظيم أمور قبيلته، أما **تسمية** بلاد «سومر أو شومر Šumeru» بهذا الاسم إنما هو اسم أكادي بمعنى جهة الجنوب في اللغة الأكادية، فالسومريون أطلقوا على بلادهم اسم (أرض سيد القصب) 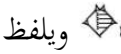 ويلفظ بالسومرية «كي. إن. جي» KI. EN. GE ، وقد ظهرت هذه التسمية لأول مرة في نص مسماري يعود لملك مدينة أوروك Uruk مؤرخ بنحو ٢٤٥٠ ق.م، وهكذا فقد أطلق السومريون على بلادهم أبرز خاصية فيها وهي بلاد القصب؛ فالقصب دخل في مختلف مناحي حياتهم اليومية إذ بنوا بيوتهم منه، وصنعوا طوافاتهم منه، وكذلك سلالمهم وحصرهم. بينما كان ملك مدينة أومّا Umma المدعو لوكال زاغيزي Lugal Zakizi أول من تسمى بلقب «ملك سومر»، بعد أن وحد عدداً من المدن السومرية تحت سلطانه، واتخذ من مدينة أوروك عاصمة له ومقرا لملكه.

بيوت السومريين المبنية من القصب

أما **أكاد** «كي أوري Ki Uri» باللفظ السومري، و«ماتو أكاديم Mat Akkadim» باللفظ الأكادي، هي الأراضي الخصبة الواقعة في وسط بلاد الرافدين إلى الشمال من مدينة نيبور حتى موضع اقتراب النهرين العظيمين من بعضيهما في وسط العراق اليوم، ومن هنا اكتسبت مدينة نيبور مكانتها الدينية من خلال موقعها المتوسط بين سومر وأكاد. لقد كان السومريون أصحاب علوم وحضارة مرموقة، شملت كل فروع المعرفة من علوم فلك وفيزياء وكيماء وطب وصيدلة ورياضيات وهندسة وأدب، ففي مدينة أوروك في جنوب العراق دونت **ملحمة جلجامش** كأول عمل ملحمي أسطوري، وكأعظم نتاج فكري أدبي حتى يومنا هذا، وتتلخص هذه الملحمة في سر البحث عن الخلود، ويقين الإنسان المطلق أن زائل لا محالة. وكان السومريون أول من مزج ثلاث مقادير من النحاس مع مقدار واحد من الرصاص للحصول على **النحاس الأصفر**، وكانوا أول من مزج النحاس بالقصدير للحصول على **البرونز**، لكن أبرز منجزاتهم هو **ابتكار الكتابة**، والكتابة تعني بداية التدوين، أي بداية **التأريخ**.

لقد دون السومريون كتاباتهم على ألواح طينية، باستخدام قلم من القصب رأسه مثلث الشكل، وهذه مواد متوفرة في بلادهم بكثرة وكلفتها رخيصة، حيث يوفر النهران العظيمان (دجلة والفرات) الطين والقطب بكثرة، لكن هذا لا يعني أن تحضير الألواح لم يتطلب جهدا، حيث يجب أن تحظى بعناية خاصة وتنظف، وكانت الألواح الطينية تترك تحت أشعة الشمس لتجف، أو توضع في أفران لتصبح صلبة صلدة لتصبح رقم فخارية، مما ساعد في العثور على كميات كبيرة جدا من تلك اللواح أثناء التنقيبات الأثرية، وهي في حالة سليمة تماماً. وإن معظم الألواح المسمارية لها شكل مستطيل ولبعضها شكل مدور. وكان للكتابة على الطين حسنات وسيئات في الوقته نفسه، حيث كان على الكاتب التقيد بحجم اللوح، كما أن النصوص الكبيرة كانت تتطلب ألواح طينية كبيرة؛ لها حجم كبير ووزن ثقيل، وكان على الكاتب أن يقدر مسبقا المساحة التي يحتاجها النص الذي سيدونه، كما أن تعديل الكلمات أو تصليحها على اللوح الطيني بعد أن يجف؛ هو أمر مستحيل. وبعد أن ينتهي الكاتب من الكتابة على وجه اللوح يتابع الكتابة على وجهه الآخر، ولا يقلب اللوح مثل صفحة الكتاب إنما يقلبها مثل ما نقلب العملة، وأحيانا يستعمل الكاتب الهامش العلوي والسفلي للوح، والحافة اليسرى أيضا، وأحيانا يترك هامشا جانبيا لطبعة الختم أو لاستعمالات أخرى، وتجدر الإشارة إلى أن الكاتب كان يضع اللوح على ذراع يده اليسرى ويمسك بقلم القصب بيده اليمنى، وينقش العلامات المسمارية من اليسار إلى اليمين على وجه اللوح، ومن اليمين إلى اليسار على الوجه الآخر.

إن نظام دويلات المدن عند السومريين الديمقراطي وتقدّمهم العلمي ورقي حضارتهم لم يشفع لهم أمام انقلاب الأكاديين العسكري عليهم سنة (٢٣٥٠ ق.م) واستلام السلطة منهم، فكيف تم ذلك؟ ومن هم الأكاديون؟ لقد كان الأكاديون أقرب عهدا إلى البادية، يقيمون إلى الشمال من بلاد سومر (شمال مدينة نيبور)؛ في المنطقة التي يقترب فيها نهر الفرات من دجلة. كان زعيم انقلابهم يدعى **شاروكين** Šar.ru.ki.in (٢٣٣٤ – ٢٢٧٩ ق.م) وما يهمنا هنا هو معنى اسمه باللغة الأكادية؛ (شار) تعني ملك و(كين) تعني الشرعي، وبالتالي ومن خلال هذا المعنى يتضح لنا أمران مهمان الأول أن هذا الاسم لم يكن اسمًا وإنما لقبًا للملك الذي أطاح بسلطة السومريين، والأمر الثاني أن شاروكين الذي نعت نفسه بالملك الشرعي لم يكن ملكًا شرعيًا، وإنما رجلًا انقلب على السلطة القائمة واغتصبها عنوة، وبالتالي كان حريصا أشد الحرص أن ينعت نفسه بالملك الشرعي؛ حتى ينال هذه الصفة في أعين رعاياه، وحتى يكسب الشرعية أكثر أدعى بأن الربة عشتار هي من دعمت انقلابه، وأنها هي من أوصله إلى السلطة، مستغلا جانب التقوى المرتفع عند سكان المنطقة. وأول الأعمال التي قام بها بعد توحيد البلاد تحت سلطانه؛ هي التخلي عن نظام دويلات المدن وتشريع النظام الإمبراطوري (الدكتاتوري) لأول مرة في التاريخ، إذ حكم البلاد بحكومة مركزية من عاصمته الجديدة، فقد قام بتأسيس **عاصمة جديدة** عرفت باسم أكاد Akkad والأصح أغاد Agade (ويعني اسمها إكليل النار) نحو ٢٣٣٠ ق.م في وسط بلاد الرافدين على نهر الفرات، إذ لم يشأ شاروكين أن يتخذ أيًا من المدن السومرية عاصمة له، وإنما فضل أن يبني عاصمته في مكان يكثر فيه أنصاره، وأمست

أكاد الميناء الرئيسي على نهر الفرات. لقد امتدت أول إمبراطورية في التاريخ من فارس شرقا إلى سوريا غربا؛ وعرفت بـ الإمبراطورية الأكادية نسبة إلى عاصمتها أكاد، التي عمرت ما يقارب (٢٠٠) سنة (٢٣٥٠ – ٢٢١١ ق.م)، وقد حكمها شاروكين ومن بعده أبناؤه وأحفاده.

لم يستكن السومريون لما أصابهم من بلاء، وانتفضوا في عهد ريموش بن شاروكين إلا أن ثورتهم قمعت بدموية، وتكررت المحاولة في عهد خلفائه لكنها فشلت، حتى اجتاحت بلاد سومر وأكاد موجة جديدة من الغزاة الغوتيين Guti القادمين من الجبال الشمالية الشرقية وهم أسلاف الإيرانيين، نحو سنة (٢٢١١ ق.م). لقد دمرت هذه الموجة كل شيء، في الإمبراطورية الأكادية التي كانت في عهد شودورول الخليفة العاشر لشاروكين، لقد تمكّن الغوتيون من قتله **وتسوية العاصمة أكاد بالأرض بطريقة دموية جعلت علماء الآثار يفشلون في العثور عليها حتى يومنا هذا**، وفي هذه الظروف وجد السومريون الفرصة ملائمة لعقد اتفاقيات تسوية مع الغزاة الجدد يضمنون فيها الحكم الذاتي لأنفسهم تحت الهيمنة الأجنبية التي استمرت نحو قرن من الزمان، مقابل دفع المجوهرات والهدايا الثمينة للمحتل الأجنبي، وخلال هذه المرحلة تولى أمر السومريون ثلاث مدن هي **لغش و أورك و أور**، أتت مدينة لغش في المرتبة الأولى؛ لاسيما في ظل حاكمها جوديا، تلتها أورك في ظل مليكها أوتو تشيجال الذي زار معبد الإله أنكي سيد الأرض، فأمره أن يجهِّز الجيوش، وأن يحرر البلاد والعباد من سيطرة الغوتيين، وبالفعل جهَّز أوتو تشيجال جيوشه، وتمكن من طرد الغوتيين وأَسَرَ ملكهم تيريجان Tiriqan ووضع قدمه على عنقه، إلا أنه لم يستمر طويلاً في الحكم وخلفه أحد ولاته المدعو أورنامو، الذي كان يحكم مدينة أور باسمه، وقد استطاع هذا الملك الجديد أن يحكم كامل سومر وأكاد من مدينته أور، وهكذا عاد السومريون ليستولوا على السلطة من جديد تحت مسمى سلالة أور الثالثة.

لقد استطاع أورنامو أن يؤسس مملكة قوية مزدهرة مرهوبة الجانب، نَعِمَ أبناؤه وأحفاده بحكمها من بعده، وحظيت أور بالسمعة والقوة والشهرة والمجد، وسار خلفاءه من بعده على خطاه في تعزيز أركان الدولة ومنجزاتها العمرانية والحضارية، لكن ذلك المجد لم يستمر لأكثر من قرن من الزمان (٢١١١– ٢٠٠٣ ق.م)، إذ تحدثت آخر النصوص المسمارية التي دوَّنها السومريون في عهد ملكهم أبي سين عن المصير المحتوم «نعلم بأننا زائلون»؛ فلم يكن بوسعهم أن يوقفوا تقدّم زحف **الأموريون** القادمين من بلاد مارتو Martu. إن الصيغة السومرية /أمورو A-mur-ru/ (مارتو بالأكادية)؛ تعني الجهة الغربية من بلاد الرافدين؛ وتحديداً مناطق البادية السورية غرب نهر الفرات الأوسط، ثم أطلقت التسمية على القبائل التي وفدت إلى بلاد الرافدين من تلك الجهة. إن أقدم نص يتحدث عن المارتو (أي الأموريين) بالمعنى البشري للكلمة اكتشف في تل فارا (جنوب العراق) ويؤرخ بنحو ٢٦٠٠ ق.م، وهذا النص يذكر أسما أموريا لأحد الفلاحين، أما في العصر الأكادي فقد تعددت الإشارات إلى أفراد وجماعات على أنهم مارتو في مختلف جنوب بلاد الرافدين في مدن مثل لغش وأداب وأومّا. أما في عصر سلالة أور الثالثة فقد كثر تسرب هؤلاء الأفراد إلى مدن بلاد الرافدين، وتشير النصوص التي وصلتنا من

مدينة درهم (قرب نيبور) والتي كانت مكانا أساسيا لتجمع الأغنام؛ أن الأموريين كانوا مُورّدين أساسيين للماشية، وهو دور يتفق مع طبيعة حياتهم الرعوية. لقد كان تسرب الأموريين تسربا سلميا طوال النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، حيث تظهر النصوص المسمارية التي جاءت من مدينة أور أن الأموريين كأفراد مقيمين تلقوا أجورا عن أعمال كانوا يقومون بها. وحتى نتعرف على خصائص الأموريين يكفي أن تتعرف على صفات الإله مارتو؛ الذي يحمل الاسم نفسه لشعبه، حيث تصفه النصوص السومرية أنه «يحفر الأرض بحثا عن الكمأة، ويأكل اللحم نيئاً».

بدأ الأموريون يجتاحون بلاد الرافدين ويستولون على مدنها منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد حاول شوسين بن أمارسين وَقْف زحف الأموريين ببناء جدار المارتو (السور الغربي) غرب الفرات الأوسط، لكن ذلك السور العظيم لم يمنع تقدم القبائل الأمورية من اجتيازه دون أي صعوبة تذكر في عهد أبي سين بن شوسين الذي كان منهمكاً في قتال العيلاميين في بلاد عيلام، لقد فشل أبي سين في قيادة الحرب على جبهتين وانتهى حكمه سنة (٢٠٠٣ ق.م)، وخسر السومريون السلطة في بلاد الرافدين إلى الأبد. لقد استطاع **الأموريون** أن يؤسسوا لأنفسهم سلالةً حاكمةً في معظم مدن الشرق العربي القديم، بل في أعظمها وأكثرها شهرة وثراء، كماري وإبلا ويمحاض (حلب) وأسين ولارسا **وبابل** التي سرعان ما سطع نجمها في عهد ملكها الخامس **حمورابي** صاحب التشريعات القضائية الشهيرة، وأهم موادها «العين بالعين، والسن بالسن، ومن بنى بيتاً هُدم على رؤوس أصحابه قُتل». لقد كان الألف الثاني عصراً أمورياً بامتياز.

أما في الغرب فقد لمع اسم مدينة **أوغاريت الأمورية** على الساحل السوري (شمال مدينة اللاذقية بـ ١٠كلم قرب ميناء البيضا) وكان لهذه المدينة علاقاتها التجارية والسياسية المتميزة مع الختيين (سكان بلاد الأناضول القدماء) والممالك الأمورية الأخرى في الداخل السوري ولاسيما يمحاض (حلب)، وقد دلت النصوص المصرية القديمة على ذلك؛ إذ ورد اسم أوغاريت في مراسلات تل العمارنة (تل أثري قديم في مصر هو آثار عاصمة الفرعون أخناتون) بالصيغ الآتية:

(u-ga-ri-it) (u-ga-ri-ti) (u-ga-ri-ta)

إن التمعن في قاموس اللغة الأكادية يبين أن كلمة (igaru) الأكادية بمعنى جدار أو سور قد أتت من المصدر (igaru)، وبما أن لكل مدينة في الشرق العربي القديم من اسمها نصيب، كان القصد بالتسمية «**القلعة المحاطة بجدار**» وهذا ينطبق على مدينة أوغاريت القديمة، إذ كانت القلعة في أوغاريت تمثل مركز المدينة، وقد تناثرت حولها مساكن العامة من حرفيين وتجار، في حين كانت القصور الملكية المحاطة بمنشآت دفاعية تقع في نهاية الطرف الشمالي الغربي من المدينة. وفي أوغاريت تم اكتشاف **أول أبجدية في تاريخ البشرية**، وهي ترقى إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وتتألف من ثلاثين حرفًا، ثم اكتشفت في جبيل على الساحل

اللبناني أبجدية أخرى أحدث من أبجدية أوغاريت بنحو قرن من الزمان تقريبًا؛ وتتألف من اثنين وعشرين حرفًا ساكنًا تكتب من اليمين إلى اليسار.

وفي مقابل عظمة عواصم الشمال الأمورية ازدهرت مدينة **دمشق** في الجنوب، والتي تعرّفنا على اسمها من خلال النصوص المصرية، إذ يشير الأستاذ السوري الدكتور محمود عبد الحميد أحمد إلى أن دمشق ذُكِرَت أوَّل مرة في التاريخ في القرن الخامس عشر قبل الميلاد في قائمة المدن التي غزاها تحتموس الثالث سنة (١٤٦٨ ق.م) ودوَّن اسمها على جدران معبد الكرنك في الأقصر بمصر، كما يبين أن أصل تسمية دمشق هيروغليفي؛ مؤلف من ثلاثة مقاطع واضحة الأول (دمي DIMI) الذي يعني مدينة، والثاني (شا Š) ويعني مرج أو روضة، والثالث (كا أو كي KI) وهي لاحقة تشير أن الاسم لمكان أو لمدينة تماما كما في اللغة الأكادية، استعيض عنها بحرف القاف، وعند تركيب هذه المقاطع الثلاثة يتبين لنا أن **اسم دمشق يعني الواحة الخضراء**، ولا شك أن هذه التسمية كانت تستحقها دمشق؛ إذ حوَّل نهر بردى غوطتها إلى جنة غناء[١].

ليس بعيداً عن دمشق في جهة الجنوب تعرَّفنا من خلال نصوص تل العمارنة (عاصمة أخناتون القديمة) على عدة إمارات سورية في سهل حوران الفسيح منها **يانوعام (تل شهاب) بمعنى بلاد النعيم، ومدينة عشتار (تل عشترة) نسبة إلى الربة السورية عشتار**، والتي كانت النجمة شعاراً لها، وسرعان ما تسرب اسمها إلى اللغات الأوروبية الحديثة؛ ومنه لفظ ستار Star بمعنى نجمة، بينما يعني اسم **بصرى** (بُصرانا) الموقع الحصين، **والطيبة** (طوب) الأرض الخصبة الطيبة. بينما سميت **البلقاء** بلقاء لأن حجارتها السوداء تختلط بحجارتها البيضاء. كما أن هناك عدد من أسماء مدن الشرق العربي القديم ذات دلالات دينية نذكر منها **بابل** بمعنى بوابة الإله، **وأريحا** (وتعني القمر الذي كان رمزا للإله سين)، **وأورشليم (القدس)** والتي تعني مدينة السلام فـ أور تعني مدينة، وشليم أو سليم تعني السلام، وارتبطت **بيت شمس** بعبادة الإله شمش، **وبيت أيل** تعني معبد الإله أيل عظيم الآلهة الكنعانية، **رام الله** بمعنى الله العالي.

لقد تبدل الواقع السياسي كلياً في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد حيث اندثرت أوغاريت تحت الحطام الذي خلّفته غزوات شعوب البحر نحو سنة (١٢٠٠ ق.م)، حتى اكتشفتها معاول المنقّبين في العصر الحديث. ولمع نجم الآشوريين في شمالي بلاد الرافدين، واستولوا على بابل، وبدؤوا يتطلعون للسيطرة على بلاد الشام التي كانت قد خضعت في الأمس القريب لتسرب القبائل الآرامية، التي استطاعت أن تستولي على معظم مدنها، بل إن الآراميين تسربوا إلى بلاد الرافدين نفسها منذ وقت مبكر واستطاعوا أن يؤسسوا لأنفسهم دولة عرفت باسم آرام النهرين، ولغة تعني آرام سكان البلاد المرتفعة أو العالية. لقد أصبحت تسمية «آرام» من أقدم الأسماء المحلية لبلاد الشام، وسبب شيوعها هو أن الحثيين (سكان الأناضول القدماء) الذين كانوا على احتكاك مباشر مع الآراميين في أعالي دجلة والفرات

(١) محمود عبد الحميد أحمد، اسم دمشق في التاريخ، ضمن أعمال الندوة الدولية دمشق في التاريخ، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م، ص٣٩

نقلوا الاسم لسوريا، وكما أن بلاد الرافدين وسوريا الشمالية كانت تعرف باسم «آرام النهرين»، كانت سوريا الجنوبية معروفة باسم «آرام دمشق» و«آرام صوبا» (في الجولان)؛ و«آرام طوب» (في بلدة الطيبة في سهل حوران)؛ حيث تأسست فيها مجموعة من الإمارات الآرامية دون أن تقوم بينها أي وحدة سياسية، ونالت دمشق مكانة مرموقة بين الإمارات الآرامية؛ حتى أن ملك دمشق كان ينعت بـ«ملك آرام». ولا نبالغ في القول إذا قلنا إنَّ الألف الأول قبل الميلاد كان عصر صراع مرير بين الإمبراطورية الآشورية والآراميين، وقد وصل هذا الصراع ذروته سنة (٨٥٣ ق.م) في معركة قرقر قرب حماه، حين اجتمعت الإمارات الآرامية في بلاد الشام تحت زعامة أمير دمشق بن حدد الثاني واستطاعوا أن يوقفوا تقدُّم القوات الآشورية بقيادة شلمنصر الثالث، بدعم ومساندة من ملك العرب جنديبو (جندب العربي) الذي شارك في المعركة بألف جمل.

أما في القرون الميلادية الأولى فقد كان شمالي بلاد الرافدين إقليماً متنازعاً عليه بين روما وفارس، يُحكم أحياناً من الرومان وأحياناً من الفرس، وأحياناً أخرى من سلالات محلية، ويعدُّ أحياناً جزءاً من سورية، في حين كان جنوبي بلاد الرافدين ووسطه تحت سلطة الاحتلال الفارسي، وكانت المدائن عاصمة للإمبراطورية الفارسية، وموقع المدائن ليس ببعيد عن موقع بغداد الحالي، حتى اسم العاصمة العراقية (**بغداد**) نفسه، اسم فارسي ويعني «عطاء الله»، كان اسماً لقريةٍ صغيرةٍ في المكان عينه، وهذا المكان الذي اختاره العرب المسلمون بعد قرون وأسسوا فيه عاصمة إمبراطوريتهم الجديدة، وتجدر الإشارة إلى أن بانيها (أبو جعفر المنصور) سمّاها «مدينة السلام» وهو الاسم الرسمي لها، والذي ظهر في وثائق الدواوين العباسية وعلى الأوزان والنقود. وكان اسم **العراق** في العصور الوسطى مستخدماً للدلالة على البلد الحالي، وكان أحياناً يُدْعى بالعراق العربي لتمييزه عن العراق الأعجمي؛ وهي المنطقة التي تضم أصفهان والري وقزوين وكرمنشاه، ويفصل بين عراق العرب وعراق العجم سلسلة جبال زاغروس.

أما تسمية **مصر** فإنها تعرف من مصدرين رئيسين، إذ يشير الأستاذ السوري الدكتور محمود عبد الحميد أحمد إلى «أن المصدر الأول هو النصوص المصرية، والثاني النصوص السورية والرافدية، ففي المصدر الأول أطلق المصري القديم أسماء وصفات تدل على بلده مصر القديمة، وقد استوحى هذه الأسماء والصفات إما من لون تربتها، أو من ارتباطها بألقاب الفراعنة، أو من النيل والفيضانات والزراعة. ففيما يتعلق بلون التربة، سمى المصري القديم بلاده (**كمت**) Kmt. وهو الاسم الوحيد الذي استخدمه المصري للدلالة على مصر، ويظن بعض الباحثين أن المصري القديم سمّى بلده كذلك بسبب لون تربتها السوداء، لأن كمت تعني الأرض السوداء باللغة المصرية القديمة. أما ما يتعلق بربط اسم مصر بألقاب الفراعنة للدلالة عليها، فقد أشير إلى الفرعون بأنَّه **ملك الأرضين**. وواضح هنا أن هذه الصفة تخصُّ الفرعون أكثر مما تخصُّ مصر. أما ارتباط تسمية مصر بالنيل والزراعة والفيضان، فقد ذكرت مصر على أنها **أرض الضفتين**، وعلى أنها (**دميرة**) بمعنى أرض الفلاحة أو أرض الحياض. ومازال الفلاح في مصر يسمي أرض الفيضان والأرض الغرقة بالمياه (دميرة) حتى هذا اليوم. وأخيراً فقد أسهم أدباء مصر الأقدمون بإطلاق صفات جميلة على بلدهم الجميل مصر، فمصر في نظرهم (**عين رب الشمس**) وهي (**العين السليمة**) ومصر (**عين الأرباب السليمة**). أما في النصوص السورية والرافدية فقد ورد اسم مصر أول مرة في رسالة بعث بها (رب عدي) أمير جبيل إلى أخناتون نحو (١٣٧٥ ق.م) قد جاء فيها أنه سيبعث بأهله إلى (ماتو مصري) وماتو كلمة أكادية تعني الأرض، أما النصوص الفينيقية فقد جاء فيها (مصرم) إشارة إلى مصر أيضاً، وأوردت النصوص الآشورية اسم مصر هكذا (مُصرُ) وعند أواخر القرن السادس قبل الميلاد كتبها الكلدانيون (مُصُرو)، أما المعينون فقد سموها (مُصُرِي)، وجاء في النصوص الآرامية والسريانية (مصرين) إشارة إلى اسم مصر، أمَّا العرب المسلمون فقد سموها (مِصْر) وهذا واضح في القرآن الكريم»[٢].

أما تسمية **سورية** فلم يُعرَف مصدرها على وجه الدقة، إلا أن هذه التسمية (أي سورية) كانت تستخدم للدلالة على المنطقة المحصورة بين جبال طوروس في الشمال، وصحراء سيناء والصحراء العربية في الجنوب والبحر المتوسط في الغرب أما في الشرق فإنها تمتد لتشمل الجزيرة الفراتية كاملة، ويفسر هيرودوت أصل اسم سورية على أنه تحوير لاسم آشور، في حين أرجعه علماء الآشوريات مؤخراً إلى أسماء أماكن محلية مختلفة. وأياً يكن مصدر الاسم فقد ظهر في بلاد اليونان أولاً، في النصوص ما قبل الهيلينية، ولم يكن له سوابق معروفة لا في شكل كتابته ولا في دلالته الجغرافية، إلا أنه كان اسماً راسخاً في الاستخدامات الرسمية في الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، ثم اختفى تقريباً هذا المصطلح اليوناني بعد الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، وبقي يستخدم في بعض الأحيان في أوروبا، ولاسيّما بعد مرحلة إحياء المصطلحات اليونانية والرومانية التي تلت عصر النهضة.

(٢) محمود عبد الحميد أحمد، تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠١٢م، ص١٣

أما في العالم العربي فقد عرفت المنطقة التي تدعى «سورية» اليوم باسم «الشام»، وأعطي هذا الاسم إلى أكبر مدنها (دمشق) أيضاً. ولم يكن لاسم سورية في كتابات الجغرافيين العرب إلا ظهور نادر، ولم يكن الاسم متداولاً حتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر عندما خضعت المنطقة للنفوذ الأوروبي، إذ اعتُمِدَ رسمياً لولاية دمشق من الإدارة العثمانية في سنة (١٨٥٥م)، ومع خضوع البلاد للانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى أصبح اسم سورية الاسم الرسمي للبلد ولأوّل مرة في التاريخ. ولتوضيح اللبس أيَّهما أصح كتابة اسم «سورية» بالألف الممدودة أم بالتاء المربوطة؟ أوضِّح أن اسم «سوريا» يكتب بالألف الممدودة للدلالة على مضمونه الحضاري؛ فهو يشمل كامل الذراع الغربي من الهلال الخصيب، أما لفظة «سورية» بالتاء المربوطة فهي تشير إلى ولايتي حلب ودمشق وما كان يُلحق بهما أيام الدولة العثمانية، واللتين وضعتا تحت سلطة الانتداب الفرنسي سنة (١٩٢٠م) (بموجب اتفاقية سايكس–بيكو، ومؤتمر سان–ريمو) ومن ثم استقلت عنه تحت اسم «الجمهورية السورية» سنة (١٩٤٦م).

كما في بلاد الرافدين كذلك في سورية كان الأكثر شيوعاً هو أن البلدان كانت تسمى بأسماء الممالك والشعوب المختلفة التي حكمتها وعاشت فيها، ومن هذه الأسماء الأكثر شهرةً لبلدان الذراع الغربي من الهلال الخصيب، أو على الأقل الأفضل توثيقاً، كانت تلك المنطقة والمعروفة باسم «**كنعان**» واسم كنعان قديم ورد في نقش أكادي على تمثال إدريمي ملك ألالاخ (مملكة ألالاخ اليوم في تل عطشانة في لواء إسكندرون)، وهذا النقش مؤرخ نحو سنة (١٥٠٠ ق.م)، ومدوَّن على تمثال الملك إدريمي. كما ورد اسم كنعان على الشاهدة المصرية لأمنحوتب الثاني في ممفيس، وظهر في نصوص تل العمارنة (في مصر) أيضاً، وتردد هذا الاسم في الكتابات على النقود في المدّة الهلنستية في فينيقية، فقد ورد على أحد النقود (لأوديكيا في كنعان)، واستعمله فيلون الجبيلي في القرن الأول الميلادي، وذهب بعض المختصين أن معنى التسمية مشتق من الكلمة «كنع Knc» والتي تعني (انخفض، انحنى، تواضع) وبذلك يكون معنى اسم كنعان الأرض المنخفضة تميزا لها عن جبال لبنان المرتفعة، وأشهر مدن كنعان هي **يافا** (يافو) والتي تعني ذات الموقع الجميل، **وعكا** والتي يعني اسمها الرمل الحار، **ومجدو** التي تعني الحصن، **وشكيم** (نابلس) التي يعني اسمها المنكب. بينما أطلق الإغريق على ساحل بلاد الشام في الألف الأول قبل الميلاد، اسم «**فينيقية**»، وهي تسمية مشتقة من كلمة أرجوان (فوينيكس Phoenix)، أطلقها الإغريق بعد أن اشتهر أهلها بتجارة القماش المصبوغ بالصباغ الأرجواني، كما اشتهر الفينيقيون بصناعة السفن مستفيدين من أخشاب الأشجار التي كانت متوفرة في غابات جبل لبنان. وكانت مدينة **صور** أشهر المدن الفينيقية (بمعنى الصخرة)، **وصيدا** (بمعنى المكان الذي يكثر فيه الصيد)، **وبيروت** (بمعنى القلعة).

لمَّا كان الساحل الفينيقي ضيقاً لا تفي زراعته بحاجيات أهله، وخلف الجبال الآراميون ولا طاقة للفينيقيين بهم، فما كان من هؤلاء الفينيقيين إلا أن قطعوا أخشاب الأشجار التي اشتهرت بها سواحل بلاد الشام منذ زمن بعيد، وصنعوا السفن وركبوا البحر، وبدؤوا يستكشفون السواحل، ويقومون برحلات قصيرة، ولم يكونوا على علمٍ بأنَّ القَدَرَ سيجعل منهم ملوك البحر. ولما بدأت رحلاتهم

تطول نزلوا البرَّ وهيَّؤوا موطئ قدم لهم في كل مكان ناسبهم، وسرعان ما تطورت هذه النقاط التي كانت على السواحل مباشرة، إلى مستعمرات هدفها تقديم الغذاء والماء للتجار الفينيقيين خلال رحلاتهم الطويلة في عرض البحر، ثم إلى مدن تجارية مهمة، لكنها بقيت مرتبطة بمدن ساحل بلاد الشام.

يُرجِع المؤرخون أولى المستعمرات الفينيقية على السواحل الإفريقية إلى أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وكانت عتيقة على الساحل التونسي أقدمها نحو سنة (١١٠٠ ق.م). كما كانت غاديس (قادش) على ساحل إسبانيا الجنوبي، ومدينة ليكسوس على ساحل الأطلسي في المغرب. أما المستعمرة التي منحها القدر حظاً مميزاً وكان مصيرها أن تتسيَّد الحوض الغربي للبحر المتوسط، هي **قرطاجة** أو «**قَرْتْ حَدَشت**» Hadasht Qart كما سمّاها بناتها الصوريون، بمعنى «**القرية الجديدة**»، لتحل محل عتيقة العتيقة، التي لم تكن تبعد عنها كثيراً. وبعد تدمير الرومان لقرطاجة سنة (١٤٦ ق.م) وإخضاع المدن البونية الأخرى، عمد الرومان إلى تأسيس ولاية رومانية تابعه لهم باسم إفريكا Africa، واستمرت تعرف بهذا الاسم طوال المرحلة الرومانية والبيزنطية حتى الفتح العربي. بعدها عرفت جميع بلدان شمالي إفريقيا باسم بلاد المغرب، وقد اتخذ العرب المسلمون في منطقة قرطاجة القيروان عاصمة لهم في المغرب العربي، أما مسمى **تونس** فهو تحريف لفظ اسم الربة الفينيقية القديمة تانيت، والتي كان يعبدها سكان قرطاجة.

في حين كان اسم **ليبيا** يستخدم منذ أيام الفرعون المصري رعمسيس الثاني سنة (١٢٩٥ ق.م) إذ ظهرت صيغة LBW مدونة في الكتابات الهيروغليفية منذ زمن هذا الفرعون، وفي زمن خليفته مرنبتاح نسبة إلى الشعب الذي قطن الأراضي الواقعة غرب منطقة العلمين، وظهر اسم ليبيا في النقوش الفينيقية في منطقة طرابلس وتونس الحالية بأكثر من صياغة (ليبيت) و(لوبت) و(لوبي) إشارة منهم إلى سكان شمالي إفريقيا، واستخدم الاسم عينه في المرحلة الإغريقية للإشارة إلى سكان ساحل شمالي إفريقيا كاملاً، لكن هذه التسمية اختفت تقريباً بعد سقوط قرطاجة سنة (١٤٦ ق.م) إذ خضعت البلدات الليبية الثلاث (طرابلس ولبدة وصبراتة) للاحتلال الروماني، وشكلت مع جزيرة كريت ولاية رومانية واحدة حتى فصلها الإمبراطور دقلديانوس في نهاية القرن الثالث الميلادي، في حين تُركت برقة للمستعمرين الإغريق، وهكذا كان اسم برقة يستخدم للدلالة على شرقي ليبيا الحالي، واسم طرابلس يستخدم للإشارة إلى غربي ليبيا، في حين شاع استخدام مصطلح «إفريقيا» منذ القرن الثاني قبل الميلاد للدلالة على ساحل شمالي إفريقيا، واستمر الأمر كذلك حتى الفتح العربي؛ إذ عرفت جميع الأمصار الواقعة غرب مصر باسم «بلاد المغرب». وبعد تفاهمات الدول الأوروبية الحديثة على تقاسم الوطن العربي في مطلع العصر الحديث كانت مقاطعتي طرابلس وبرقة من حصة الطليان، فما كان منهم إلا أن غزوا البلاد واحتلوها سنة (١٩١١م) وأعادوا استخدام اسم ليبيا للإشارة إلى هاتين المقاطعتين فحسب، وكانت أول وثيقة رسمية تستخدم اسم ليبيا في العصر الحديث هي منشور قائد القوات الإيطالية كارلو كانيفا C.Caneva الذي نشر في (٧ نيسان ١٩١٢م).

أمَّا مصطلح **العربية** Arabia فهو مصطلح مبهم، وإن كان يعني في ظاهره «بلاد العرب»؛ فالبدو أو الأعراب انتشروا في كثير من بلدان الشرق القديم، لذلك أصبح تحديد موطنهم أمراً بالغ الصعوبة، وإن كانوا ينتشرون بشكل رئيسي في شبة الجزيرة العربية وبادية الشام، وأول ذكر **واضح** للعرب كان في نصوص الدولة الآشورية، ولما كانت الكتابة الآشورية لا تحرك المقاطع، صعب على علماء اللغة ضبط الكلمة، فاختلفوا في كيفية نطقها؛ فقُرِئت «Aribi» و«Urbi» و«Arai» و«Arub» و«Aribu» و«Arubu». وكان العرب مصدر خطر على القوافل التجارية التي تجتاز البادية، إذ لا بد من تأديبهم من قبل الدولة الآشورية، وكان (جندب العربي) ملكهم قد شارك الآراميين في مواجهة تقدم قوات شلمنصر الثالث في معركة قرقر قرب حماة سنة (٨٥٣ ق.م) بألف جمل. كما ورد ذكر العرب في نصوص حملة الملك الآشوري تجليات بلاصر الثالث Tiglathpileser III لإخضاع المتمردين على عرشه سنة (٧٣٨ ق.م) وكان من جملتهم ملكة العرب (عربي) المدعوة زينب (زبيبي) إلا أن الملكة سرعان ما استسلمت للأمر الواقع، وقبلت بدفع الجزية، وتقديم المجوهرات والهدايا للملك الآشوري. وبعد (٦) سنوات قامت ملكة العرب الجديدة بالتمرد، فأرسل الملك الآشوري نفسه حملة إليها في سنة (٧٣٢ ق.م) وسببت قواته لهذه المملكة خسائر كبيرة، إذ قُتِلَ مئة ألف رجل وغُنِمَ ثلاثون ألف جمل، وعشرون ألف رأس من الماشية، فما كان من الملكة إلا أن أرسلت وفداً إلى نينوى (عاصمة الدولة الآشورية) مؤلفاً من وجهاء القبائل المنضوية تحت رايتها بهدف عقد الصلح مع الملك الآشوري ودفع الجزية له، وقد ذكر النقش المشار إليه أسماءهم مثل «جرابا» Jaraba في حين كان الوفد برئاسة تمران Hatarama، وفي نينوى أدُّوا ولاء الطاعة للملك الآشوري وتعهدوا بدفع الجزية وتقديم الجمال، وعيَّن الملك الآشوري عند الملكة نائباً اسمه أو اسم وظيفته Kepu (ربما كاتب) بهدف تنفيذ شروط الصلح، وكي يكون الوالي الحقيقي على المقاطعة ويشرف على سياسة الملكة، وهكذا دفعت الملة شمس (شمسي) الجزية تماماً كما فعلت ذلك أختها من قبلها بـ(٦) سنوات. وعلى الحجر نفسه الذي وجدت عليها النقوش سالفة الذكر، وجد نقش يمثل منظر فارسَيْن آشوريَّيْن يحملان رمحين ويطاردان بدوياً على جمل، وأمامها جثث القتلى على الأرض. ورسمت امرأة حافية القدمين تحمل جرة يبدو عليها الجوع والتعب، ويرى المؤرخ جواد علي بأن هذه المرأة هي ملكة العرب.

وتجدر الإشارة إلى أن وجود العرب هو أقدم من القرن التاسع قبل الميلاد الذي توثق له النصوص الآشورية، إذ ورد ذكر العرب في الكتابات البابلية؛ منها جملة (ماتو–أربي) (Matu A-Ra-bi، Matu Arabaai)، وكان المقصود فيها بلاد العرب، وبتعبير أدق البادية، حيث كانت القبائل العربية تسرح وترعى أغنامها. كما ورد ذكر العرب في نصوص متأخرة منها في نقش بهيستون Behistun لدارا الكبير (داريوس) بلفظ «عربايا Arabaya»، ومراد البابليين أو الآشوريين أو الفرس من «العربية» أو «بلاد العرب»، البادية التي تقع في غرب نهر الفرات الممتدة إلى تخوم بلاد الشام. في حين أطلق الرومان اسم «العربية» على إحدى ولايات

إمبراطوريتهم التي تقع جنوب وشرق فلسطين وكانت عاصمتها مدينة بصرى الشام، في ذلك الجانب من عالم البحر المتوسط بين سورية ومصر؛ وهي تضم صحراء النقب وحوران وجميع أنحاء شرق الأردن وشمال غرب السعودية.

أمَّا **اليَمن** فقد أتى اسمها من اليُمن وهو الخير والبركة، فقد اشتهرت اليمن بخصوبة أرضها ووفرة أمطارها ومناخها المعتدل وبأشجارها المثمرة وقد وصفها القرآن الكريم بالجنة في سورة سبأ: «**لقد كان لسبأ جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور**»، ويرى بعض علماء اللغة والتاريخ أن سبب تسميتها بلاد اليمن لأنها تقع على يمين الكعبة المشرفة. بينما سمّاها الرومان **بلاد العرب السعيدة** (الميمونة) Eudaemon Arabia وحاولوا احتلالها في سنة (٢٤ ق.م) إلا أن حملة إليوس غاليوس Aelius Gallus عليها باءت بالفشل. ومهما يكن من سبب التسمية فقد ارتبط ازدهار اليمن تاريخيا **بسد مأرب**، وقد ذكر الرواة والمؤرخون أنه مبني من صخر وقار، وكان له ثلاثة أبواب فوق بعضها بعضا، ثم جاء سيل العَرِم فهشم السد، وكان بناءه في القرن الثامن قبل الميلاد واستمر قرونا امتدت إلى ما بعد الميلاد. واشتهرت اليمن بقصورها التي تغنى بها الشعراء كقصر غمدان وريدان. وتجدر الإشارة إلى أن الباحث الألماني موريتز، رأى أن أصل الحروف بعد الكتابة الهيروغليفية، كان في اليمن وفي رأيه أن اليمنيين هم من اخترع الأبجدية، وليس الفينيقيون الذين أخذوا عن اليمنيين، ومن ثم أخذ اليونانيون عن الفينيقيين، ثم الرومان عنهم، فيكون العرب اليمنيون هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم، وبهذا الحسبان هم الذين أوجدوا الحضارة.

أما شمال الهلال الخصيب تقع البلاد التي تعرف اليوم باسم **تركيا**، التي لم تكتسب اسمها إلا في العصور الوسطى (وفي أوروبا فحسب) عندما أتى شعب يسمى بالأتراك من الشرق البعيد من إقليم تركستان خلف بحر قزوين. إن التسميات الأكثر شيوعاً لتركيا والمستخدمة في بداية القرون الميلادية، كانت آسيا أو آسيا الصغرى **والأناضول**، كلا الاسمين كانا مخصصين للسواحل الشرقية لبحر إيجة، إلا أن دلالة الاسم توسعت تدريجياً باتجاه الشرق بطريقة مختلفة ومتغيرة إلى حد ما. كان أكثر ما يشار إلى هذه البلاد عادة عن طريق أسماء المقاطعات والمدن والممالك المختلفة التي قسمتها، وكانت اللغة اليونانية اللغة المهيمنة ووسيلة الاتصال الرئيسية فيها. لقد أتت تسمية «الأناضول» من كلمة يونانية بمعنى «**شروق الشمس**» مثل تسمية «الشرق» التي أتت من اللاتينية و«المشرق العربي» التي أتت من الإيطالية. هذه الأسماء تعكس النظرة إلى الشعوب الذين يقطنون الأراضي الواقعة شرق البحر المتوسط. وتدريجياً أصبحت شعوب البحر المتوسط على بينة من آسيا النائية والواسعة إلى الشرق، لذلك أعيدت تسمية الأناضول بأشهر أسمائِه «آسيا الصغرى». وبالطريقة نفسها بُدِّلَ اسم «**الشرق العربي القديم**» بعد عدة قرون ليصبح «الشرق الأدنى» لمسوّغات جغرافية وتاريخية، فبعد أن قسَّم الجغرافيون قارة آسيا الكبرى إلى أقاليم جغرافية تسهيلاً لدراستها اقترحوا أن يكون الشرق العربي القديم تحت مسمى «الشرق الأدنى»، وبقيت رقعته الجغرافية تعادل الشرق العربي القديم الذي كان يضم بلاد الشام والرافدين والجزيرة العربية والأطراف الجنوبية من الأناضول

والشرقية من إيران. وفيما بعد بُدِّيل اسم المنطقة إلى «**الشرق الأوسط**» وذلك بعد أن بزغ الشرق البعيد (العالم الجديد) في الأفق الغربي. وتعدّ سوريا في شرق المتوسط الأكثر أهميةً والأكثر روعةً، والمعروفة عند الجغرافيين العرب ببلاد الشام.

أما في أقصى الشرق الأدنى توجد إيران أو **بلاد فارس** كما سماها الإغريق؛ إن المعنى الدقيق لكلمة فارس لا يشير إلى اسم البلاد ولا حتى الشعب، وإنما كان اسماً لمقاطعة بارسيا الواقعة في الركن الجنوبي الغربي من إيران، والتي تطل على الساحل الشرقي للخليج العربي، وعلى الرغم من أن الإيرانيين لم يطلقوا هذه التسمية على بلادهم (أي لم يسموها بلاد فارس)، لكنهم لم يجدوا حرجاً في استخدام هذا الاسم، لأن اللهجة والثقافة الإقليمية لمقاطعة فارس أصبحت اللغة السياسية والثقافة الرسمية والمهيمنة في كامل البلاد، بالطريقة نفسها التي أمست فيها **التوسكان إيطالية، والقشتالية إسبانية، ولهجة المقاطعات المحلية إنكليزية**. كان اسم «**إيران**» هو المستخدم دائماً من الفرس، لذلك فرضوا على باقي دول العالم أن تسمي بلادهم به منذ سنة (١٩٣٥م)، وهو مشتق من كلمة آريانام الفارسية القديمة، وهذه الكلمة اسم جمع بمعنى «**أرض الآريين**»، والتي يعود تاريخها إلى أوائل هجرات الشعوب الهندو– أوروبية.

وتجدر الإشارة إلى أن **إيطاليا** Italia قد اكتسبت اسمها من الكلمة الإتروسكية القديمة Vitellio ومعناها «**أرض العجول**» كناية عن الغنى في المراعي وتربية الماشية. وقد أطلق الإغريق هذا الاسم في القرن الخامس قبل الميلاد على المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة الإيطالية المجاور لجزيرة صقلية والشهيرة بغاباتها ومراعيها الجبلية، لكن مدلول هذه التسمية أتسع حتى صار يدل في القرن الأول قبل الميلاد على كامل شبه الجزيرة الإيطالية من الجنوب حتى جبال الألب في الشمال.

المحاضرة الثالثة

الرياضيات في الشرق العربي القديم

يوجد أكثر من ٤ آلاف لغة في العالم، والكثير من الأبجديات، والعديد من أنظمة الكتابة المختلفة، وعلى الرغم من هذا هناك نظام ترقيم واحد نستخدمه في العالمين الغربي والعربي وفي الكثير من بلدان العالم الأخرى. في الواقع إن الرياضيات هي الاختراع الذي يتسم بالشمولية العالمية، **وهي اللغة الحقيقية المتعارف عليها بين سكان الكوكب**. لقد كانت الحاجة لنظام عد وحساب ضرورةً ملحةً، فبعد أن **نشأت القرى** على طول الرافدين العظيمين (دجلة والفرات)، كان لابد من التعاون وتظافر الجهود من أجل القيام بأعمال الزراعة المختلفة، وتوزيع حصص الماء وحفر قنوات الري والترع وإقامة السكور والسدود ومسح الأرض الصالحة للزراعة، مما أفضى إلى قيام السلطة الزمنية حيث ظهرت مؤسسة الدولة (القصر)، ولما كان الخير كله بيد الآلهة ولا بد من شكرها، قامت السلطة الروحية حيث ظهرت مؤسسة المعبد. لقد اعتنت الدولة بموظفيها وجنودها ودوائرها، بينما اعتنى المعبد بالفقراء والمساكين والضعفاء واليتامى والأرامل. لقد كان **الموظفون** الذين يديرون أملاك هاتين المؤسستين بحاجة لنظام عدٍّ وحساب لتقدير الضرائب وأجور الفلاحين والمحصول والثروة المتراكمة، وحساب الهبات والأضاحي والصدقات، وما يمكن إنفاقه على الاحتفالات الملكية والزواج المقدس بالنسبة للقصر، وما يمكن إنفاقه على الاحتفالات التي تقام للآلهة والتي يجريها الكهنة بالنسبة للمعبد، وهكذا يمكننا القول إن الرياضيات ولدت من الأرقام والعد لحاجة اقتصادية ماسة[١]. وفيما بعد كان ملوك الشرق العربي القديم بحاجة إلى العد؛ لإحصاء القوى السكانية من أجل توظيفها في معاركهم، حيث أننا نمتلك رسالة من زمري ليم ملك ماري فيها توجيهات بضرورة تزويده بملخص عن رُقم الإحصاء المحفوظة في أرشيفات المملكة، والهدف هو معرفة القوى التي يجب عليها أن تلتحق بمخيمه العسكري[٢].

لقد تطور العد والحساب تدريجيا؛ فأولا كان يتم **رسم الشيء** كاملا أو جزء منه (كرأس للحيوان مثلاً)، وتم التعبير عن الجمع بتكرار الرسم أو الرمز بالعدد اللازم، ولعله من ذلك نشأ نظام العد والترقيم، وفيما بعد أخذت الأرقام إشارات رمزية، وقد ظهر ذلك في

1) Katz, V. J., *A History of mathematics*., 3ed, University of the District of Columbia, 2009, p.11
2) Charpin, D., *Writing, Law, and Kingship in Old Babylonian Mesopotamia.*, Translated by Jane Marie Todd, University of Chicago Press, 2010, p.40

أقدم لوح طيني مؤرخ بمرحلة ما قبل السلالات السومرية؛ حيث رسم عليه رأس بقرة وخطان صغيران، ربما أن لهما قيمة عددية[٣]. وانطلاقا من هذا الترميز البسيط تطورت الرياضيات لتساهم فيما بعد في كل النواحي الحضارية في الشرق العربي القديم، حيث تم الاستفادة منها في هندسة البناء، وشق الطرقات، ومسح الأراضي، وحساب مساحتها، وتعيين حدودها، وإعادة توزيعها على الفلاحين، وفي تقسيم الأملاك، وفي الهندسة المائية كحفر قنوات الري والترع وبناء السكور والسدود والعبارات، وفي التقويم وحساب الزمن، وفي إحصاء السكان والغنائم وتعداد القوات التي يمكن تجنيدها.

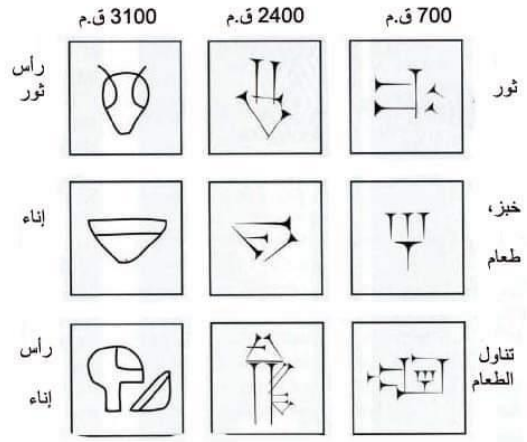

- **ألواح الرياضيات المسمارية:**

منذ اخترع الكتابة في سنة ٣٢٠٠ ق.م حتى تاريخ تدوين آخر نص مسماري في سنة ٧٥م، دون سكان الشرق القديم كتاباتهم على ألواح طينية باستخدام قلم من القصب رأسه مثلث الشكل، وهذه مواد متوفرة في بلاد الرافدين بكثرة وكلفتها رخيصة. وكان اللوح الطيني يترك تحت أشعة الشمس ليجف أو يوضع في أفران ليتم شواءه فيزداد صلابة[٤]. وهناك ما يقارب ٥٠٠ لوح طيني يمثل أغلبها مسائل رياضية، ومعظم الألواح الرياضية لها شكل مستطيل، ولبعضها شكل مدور أو بيضوي، ومعظم هذه الألواح الرياضية تعود للعصر البابلي القديم[٥]، ويرجع الفضل لعالم الآشوريات نوجبور Neugbauer في دراسة الرُقم الرياضية في القرن العشرين[٦].

---

٣) فيصل عبد الله وعيد مرعي، المدخل إلى تاريخ الحضارة، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٨م، ص٢٢١.

4) Charpin, D., Op. Cit., 2010, p. 7

5) Katz, V. J., Op. Cit., 2009, p.11

6) Hodgkin, L., *A History of Mathematics From Mesopotamia to Modernity*., Oxford University Press, 2005, p.17

تنقسم الألواح الرياضية إلى نوعين أساسيين، **النوع الأول** يتمثل في الجداول الرياضية، وبلغ عددها حوالي ٢٠٠ لوح طيني، وتتضمن جداول متبادلات، وجداول الضرب، والمربعات والجذور التربيعية، والمكعبات والجذور التكعيبية، والمتواليات العددية، ومجموع المربعات والمكعبات المطلوب من أجل حل عددي لأنواع معينة من المعادلات، ووظائف أسية. **والنوع الثاني** يتمثل في نصوص وقضايا علمية كانت تمثل المعادلات الجبرية التربيعية ونظرية الأعداد وعمليات أخرى تم صياغتها بتعابير هندسية مثل تشابه المثلثات وتناسب أضلاعها، ونظرية التوازي والتناظر ومعادلات جبرية من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، وقضايا عملية مثل توسيع قناة أو إحصاء قرميد[٧]. أما **الصعوبات** التي تواجه دارسي تاريخ الرياضيات في الشرق العربي القديم؛ هي أن معظم هذه الألواح الطينية قد تم الكشف عنها بطرق غير مشروعة، أو بطريق الصدفة، وبالتالي فإن بعضها تعرض للكسر، لذلك يجد الباحث صعوبة كبيرة عند دراستها[٨]، أما الصعوبة الأكبر أن بعض هذه النصوص كتبت بلغة سومرية–أكادية مختلطة، كما أن بقاء هذه الألواح كان مسألة فرصة، فهي لا تعبر عن كامل الرياضيات في شرقنا العربي القديم؛ لذلك تبقى الصورة ناقصة وغير مكتملة[٩].

- **ميلاد الأرقام ومكانتها الرمزية:**

تعتبر الأرقام أحد أهم إنجازات البشرية، وإن الوصول إلى مفهوم الأرقام سبقته عملية طويلة من التجريد، وهي نوع من عملية اكتشاف بطيئة؛ فهناك قفزة هائلة من مفهوم عشرة أبقار إلى عشر وحدات إلى القوة التجريدية للرقم عشرة، في الواقع لقد استعان السومريون بأعضاء جسم الإنسان المميزة للتعبير عن الأرقام ولاسيما أصابع اليد، فمثلا **الرقم واحد** كان خطا عموديا مستقيماً، يشبه جسد الإنسان أو أصبعه. وعرف **الرقم اثنان** من ملاحظة تناظر أعضاء الجسم كاليدين والعينين والرجلين. وبما أن أعضاء جسم الإنسان لا تكفي للتعبير عن الأشياء التي زاد عددها عن اثنان، استعانوا بالطبيعة المحيطة بهم، وهكذا أصبح **الرقم ثلاثة** يعبر عن الجمع والوفرة والكثرة، لأن جسم الإنسان لا يمتلك ثلاثة أعضاء متماثلة، وقد أصبح لهذا الرقم دلالته الخاصة، فعروس الزواج المقدس في مدينة أور كانت تحمل على رأسها زينة ذهبية تعلوها ثلاث ورود فقط، كما أن زقورة أور تكونت من ثلاث مصاطب فوق بعضها[١٠]، إن فكرة بناء المعبد على الزقورة كان الهدف منها حماية المعبد من الغرق في حالة فيضان نهري دجلة والفرات، وعدم تسرب الرطوبة

7) Kramer, S. N., The Sumerians., 4ed, University of Chicago Press, 1970, p.91

٨) عُلا محمد أمين عطية، العلوم الأولية في حضارة المشرق العربي القديم (بلاد الرافدين) من العصر السومري إلى نهاية الدولة الكلدانية من ٢٨٠٠ ق.م – ٥٣٢ ق.م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق ٢٠١٤م، ص٥٨.

9) Hodgkin, L., Op. Cit., 2005, p.18

١٠) عُلا عطية، المرجع السابق، ص٢٩.

والحشرات والأوساخ إلى داخله؛ هذا من وجهة نظر هندسية. أما من وجهة نظر دينية فكان الهدف من بناء المعبد على زقورة تحقيق فكرة سمو الآلهة المطلق، وذلك عن طريق رفع المعبد إلى أعلى حد ممكن لكي يقترب الإله من السماء. وأخيرا وكان عدد أيام الحداد في الشرق القديم ثلاثة، أهمها أيام الحداد الثلاثة على الإله دموزي Dumuzi وتبدأ في الأول من شهر نيسان.

عروس الزواج المقدس

الجانب الشمالي الشرقي (السلالم التي أعيد ترميمها جزئيا") من الزقورة في أور .

أما بشأن **الرقم أربعة** فقد نظر إنسان بلاد الرافدين حوله فوجد الجهات أربعة، لذلك استخدم الملك الأكادي الشهير شاروكين وحفيده نارام سين لقب (ملك الجهات الأربعة) للدلالة على قوته وعظمته، وكان للإله مردوك Mardouk أربع آذان وأربع عيون في رأسه، أذن وعين في كل جهة، تعبيرا عن قوة السمع والبصر عنده. وبشأن **الرقم خمسة** فلا شك أن إنسان بلاد الرافدين قد اهتدى

لهذا الرقم من أصابع يده الخمسة. أما **الرقم ستة** فقد جعلوه رمزا للربة عشتار وجعلوا شكله النجمة[١١]. وكان **للرقم سبعة** دلالات متنوعة ومكانةً لا تدانيها مكانة رقم آخر عند سكان الشرق العربي القديم أهمها: أن أيام الأسبوع سبعة، والسموات سبع والأرضين سبع. ولكل من زقورة بورسيبا وبابل سبعة أدوار (طوابق)، وقد لون كل طابق بلون معين إشارة إلى كوكب من كواكب المجموعة الشمسية السبعة، التي عرفها سكان الشرق القديم، أما تلك الألوان فهي كالتالي، من الأسفل إلى الأعلى: الأسود زحل، والأبيض عشتار، والبرتقالي المشتري، والأزرق عطارد، والقرمزي المريخ، والفضي القمر، والذهبي الشمس. كما إن التنقيبات بينت أن بابل كانت محاطة بسور مزدوج تفصل بين جدرانه سبعة أمتار، وكان للمدينة سبعة أبواب، وأحد هذه البوابات يحمل اسم الربة عشتار، وكان يمتد منه شارع يؤدي إلى المنطقة المقدسة في جنوب بابل حيث معابد الآلهة، وقد أولى البابليون الأيام التي توافق اليوم السابع ومضاعفاته من كل شهر أهمية خاصة. واعتقد الآشوريون أن سبعة أبواب تحيط بالعالم السفلي[١٢].

بوابة عشتار وموكب الاحتفال المقدس مارًا بها

وكان **للرقم ثمانية** علاقة بعبادة الشمس، فزهرة نبات عباد الشمس التي تتابع الشمس من مشرقها لمغيبها، فُسر أمرها على أنه عبادةٌ للشمس، ولو دققنا في الوردات الثلاثة التي تحملها عروس الزواج المقدس على رأسها سنجدها هي زهرات عباد الشمس، وقد رسم فنانو العراق هذه الوردة بثمانية أوراق وذلك تمثيلا لإله الشمس، مع العلم أن أوراق هذه الزهرة في الحقيقة يزيد عددها على ٣٢ ورقة [١٣]. كما بني معبد مردوك الشهير في بابل على برج من ثمانية أدوار ويصعد له بدرج حلزوني وكان يتم فيه الزواج المقدس[١٤].

---

[١١]) عُلا عطية، المرجع السابق، ص٢٩.

[١٢]) محمد محفل، تاريخ الرومان، تاريخ إيطاليا وروما حتى عصر الفتوحات الكبرى، سلسلة تاريخ الرومان، بيروت ١٩٧٤، ص١٧٨.

[١٣]) عُلا عطية، المرجع السابق، ص٣٠.

- **الحساب ونظام العد:**

لقد أبدع السومريون نظامهم الرقمي، وأسسوا لأول نظام عدّ في المجتمعات البشريَّة، واستخدموه في حياتهم لإنجاز أعمال حسابية مختلفة، اعتمدوا فيه بادئ الأمر النظام العشري، البدائي، المنبثق من فكرة عدد أصابع اليدين العشرة، واستخدموا لذلك **إشارتين، أي رقمين فقط**، الأولى على شكل **مسمار قائم**، عريض الرأس من فوق 𒁹 ، وهذا المسمار رمز لقلم القصب الذي كانوا يستخدمونه في كتاباتهم على ألواح الطين، ومن شكله جاء الاسم (الكتابة المسماريَّة)، والإشارة الثانية على شكل **رأس رمح** 𒐖 ، وهذا يرمز بدوره إلى آلة الحرب البسيطة التي استخدموها في حروبهم.

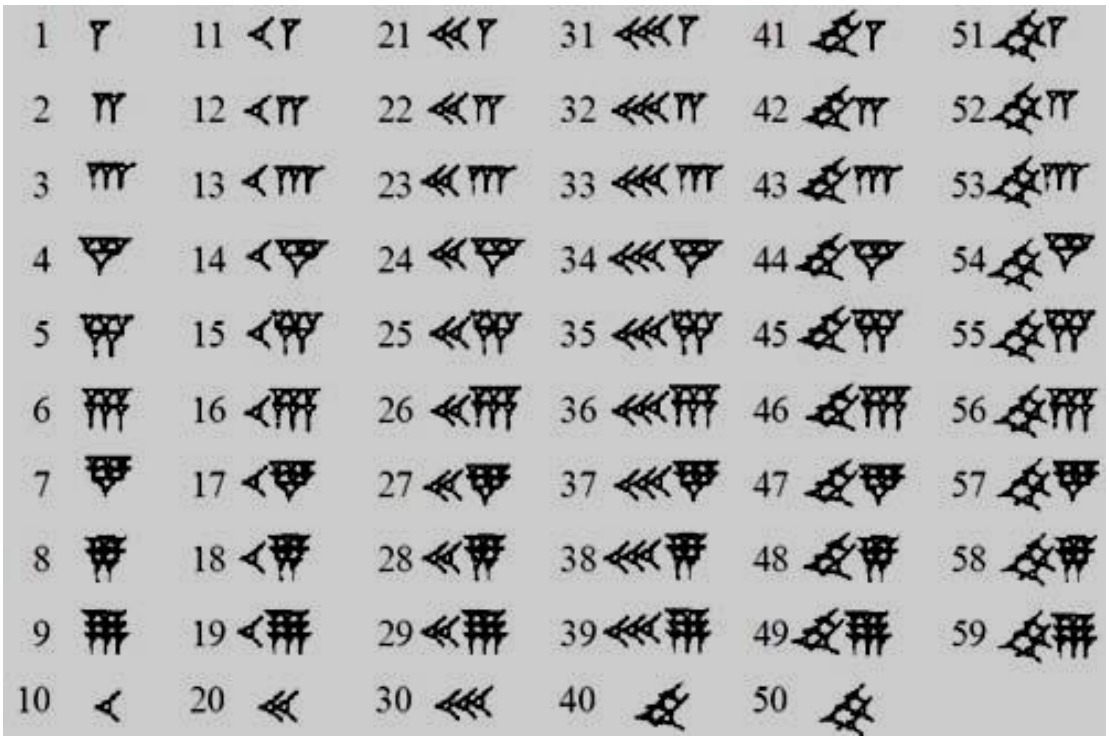

تظهر اللوحة الأعداد المسمارية: ويلاحظ بأن العدد واحد احتل مكانة العدد ٦٠ في الجدول أعلاه، إلا أن الفرق بين الاثنين هو في الحجم فقط، حيث يكون الحجم في هذه المرة أكبر. وهذه من مشاكل كتابة الأعداد عند السومريين، حيث إنها معرضة للخطأ ارتباطا بالشخص الذي يتولى عملية الكتابة وربما لا يراعي حجم الكتابة، أو بالمكان الذي يوضع فيه الرقم المستخدم. وقد اهتم السومريون في إعداد الكَتَبَة وتأهيلهم بشكل جيد ليتجنبوا الإشكالات المحتملة في تدوين حساباتهم.

[١٤]) هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، مراجعة أحمد السقاف وحمد بن صراي، أبو ظبي ٢٠٠١م، ص١١٥.

- **النظام الستّيني:**

لقد اعتبر السومريون النظام الستّيني مقياسا لهم في تعاملاتهم الحسابية، وأخذ هذا النظام منهم ليس فقط من تبعهم من الشعوب التي قطنت في بلاد الرافدين، بل تعدى ذلك ليصل إلى كل شعوب المعمورة[١٥]، ويرى العلماء المختصون أنَّ السومريين بنوا نظامهم الستيني هذا بالاعتماد على ما لاحظوه في **بيوت النحل**، حيث إن هذه البيوت تُبْنى على أشكال سداسية، فلاحظوا بأن محيط كل دائرة من خلايا النحل هذه ينقسم إلى ستة أوتار متساوية، وكل وتر فيها يمثل نصف قطر الدائرة، كما تمكنوا من ملاحظة أن بيوت النحل السداسية الأشكال تنقسم إلى خلايا وكل خلية منها تنقسم إلى ستة مثلثات متساوية الأضلاع، وإن قياس زوايا كل واحد من هذه المثلثات يتكون من ٦٠ درجة، ومجموع زوايا الدائرة الواحدة يكون ٣٦٠ درجة، وقد منحوا العدد ٦٠، لأهميته عندهم، اسماً خاصا به وعلى شكل مفردة وليس اسم مركب كغيره من الأعداد التي تلي العدد ٩، وكان يسمى هذا العدد عندهم «جيش giš». وقد نقلوا نظام الأعداد هذا إلى أمور أخرى، منها **حساب الزمن** إذ قسموا الساعة إلى ٦٠ دقيقة، والدقيقة إلى٦٠ ثانية، ويبدو بأن هذا النظام قد انتشر استعماله حتى تم بموجبه تقسيم أيام الشهر إلى ٣٠ يوما، أي نصف الـ ٦٠، والسنة إلى ١٢شهرا قمريا، وهو عدد يقبل القسمة على ٦، وهكذا كان مجموع أيام السنة ٣٦٠ يوما، أي حاصل ضرب ٦×٦٠. ولتغطية الفرق الحاصل بين السنة القمرية والسنة الشمسية، كانوا يضيفوا كل ست سنوات شهرا لسنة، فتصبح ١٣ شهرا[١٦]. والحقيقة أننا تعلمنا أن نعدَّ الأشياء بالدزينة (١٢) (كالبيض والمحار والكاسات والآنية الزجاجية)، كان بفضل السومريين.

في الواقع إن هناك **ميزة رئيسية للنظام الستيني** مقارنة بالنظام العشري تتجلى في أن للأساس ٦٠ عوامل أكثر بكثير من عوامل الأساس عشرة. فعوامل الـ ٦٠ هي: ١, ٢, ٣, ٤, ٥, ٦, ١٠, ١٢, ١٥, ٢٠, ٣٠ مقابل العوامل ١, ٢, ٥ فقط للعشرة. بمعنى أن الكسور والقياسات والأوزان يمكن أن يعبر عنها بدقة كبيرة في النظام الستيني[١٧]. ولقد قرن السومريون وحدات النظام الستيني **بالآلهة** وأدخلوها في أساطيرهم ورمزوا للآلهة بالأرقام، حيث رمزوا للإله **آنو** Anu (إله السماء) بالرقم ٦٠ استناداً إلى استخدام الستيني في العد، وكان يرمز للإله نانا= سين Sin (إله القمر) بالرقم ٣٠ وهو عدد أيام الشهر القمري[١٨].

15) Kramer, S. N., Op. Cit., 1970, p.91

١٦) محمد شطب، المرجع السابق، ص٣.

١٧) جون ماكليش، المرجع السابق، ص٥٣.

١٨) فيصل عبدا لله وعيد مرعي، المرجع السابق، ص٢١٩.

ورغم صلاحية نظام المنازل السومري، الذي كان أول نظام ابتُكر، إلا أنه كان يعاني عيبا واحدا فقط[١٩]، هو خلوه من علامة أو رمز للتعبير عن مرتبة العدد الخالية في كتابة الأرقام، **أي عدم وجود الصفر**، فأدى ذلك إلى وقوع الالتباس في قراءة قيم الأعداد، فكان عدم وجود وحدات مراتب معينة يعبر عنه بفراغ فاصل، وكان ذلك يزيد الغموض والالتباس. وفي تطور لاحق نحو القرن السادس قبل الميلاد بدأ البابليون عند كتابة الأرقام في إحدى المراتب كالمئات؛ **يضعون علامات مسمارية تعني الصفر**، مخافة أن يقوم الشخص الذي سيقوم بعد فترة باستنساخ اللوح الطيني بعدم الانتباه إلى الفراغ، فيضع الأرقام الواحد تلو الآخر فيتسبب ذلك بتغيير قيمها العددية، وتلك العلامات المسمارية التي كانوا يضعونها تجنباً للالتباس كانت تساوي علامة اللاشيء[٢٠]. يمثل هذا الغموض النقيصة الوحيدة في النظام السومري، وفيما عدا ذلك فإنه يتفوق على كل النظم الأخرى التي استعملت منذ ذلك الحين –على الأقل– حتى ابتكار النظام المتري قبل نحو مائتي سنة. **وكان ثمة أربعة أسباب لهذا التفوق**: أولها: مفهوم القيمة المكانية، وثانيها: توسيع الأساس العددي ٦٠ ليضم الكسور، وثالثها: حقيقة أنه هناك رمزان عدديان للواحد والعشرة فقط، وأخيرا حقيقة أن الأساس ٦٠ كان يستعمل أيضا للأوزان والمقاييس[٢١].

وبعد السومريين جاء **الأكاديون** (٢٣٧٠–٢١١١ ق.م) الذين اعتمدوا الأرقام السومرية وضبطوها وفق نظامهم الخاص، وأطلقوا لفظ (شوشي) على الستين، واعتمدوا النظام الستيني أحيانا، والنظام العشري–الستيني أحيانا أخرى، وفي بعض الأوقات كانوا يكتفون بالنظام العشري؛ حيث طوروا نظام عدٍ عشري، كان قد انتشر في معظم أنحاء المشرق العربي القديم[٢٢]. أما **الأموريون** فقد اعتمد النظام الستيني أحيانا، والنظام العشري أحيانا أخرى. حيث اعتمد أبناء مدينة ماري وإبلا النظام العشري، واستخدم الآشوريون النظام العشري أيضا، ولعل هذا النظام (أي العشري) كان خاصاً بالسوريين دون غيرهم[٢٣]. بينما اعتمد **البابليون** النظام الستيني لأنه يوافق معارفهم الفلكية وديانتهم التي تتركز حول الرقم ٦٠، إذ نجحوا في مراقبة تحركات النجوم والكواكب والقمر، واستطاعوا التنبؤ بالعديد من حركات الكواكب، من خلال دراسة مراحل القمر. وكان للبابليين فضل كبير في ابتكار الفاصلة (أو الصفر) ووضعها بين الأعداد للفصل بينها تارة، ولتمييزها عن بعضها البعض تارة أخرى. كما أنهم استخدموا الجذور في حساباتهم وتفننوا في علوم الجبر والمثلثات

[١٩]) جون ماكليش، المرجع السابق، ص٥٢.
[٢٠]) عُلا عطية، المرجع السابق، ص٦٢.
[٢١]) جون ماكليش، المرجع السابق، ص٥٢.
[٢٢]) عُلا عطية، المرجع السابق، ص٦١.
[٢٣]) فيصل عبدا لله وعيد مرعي، المرجع السابق، ص٢٣١.

والرياضيات، وهم أول من وضع الجداول الرياضية التي لا يزال استخدامها مستمر حتى وقتنا الحاضر، وتركوا أكثر من ٣٠٠ لوح طيني تتضمن جداول رياضيات تحتوي على معلومات متطورة جدا؛ استخدم فيها النظامين العشريّ والستينيّ معا[٢٤].

- **العمليات الحسابية:**

إن أي طفل اليوم يعرف العمليات الحسابية الأربعة، ويبدوا لنا هذا أمرا طبيعيا جدا إلى حد أننا لا ننتبه إلى حقيقة أنه توجب اكتشاف هذه العمليات أيضا، وإذا أقررنا بأن عمليتي الجمع والطرح لا تستدعيان مقدرة عقلية خارجة عن المألوف، فلا نستطيع قول الشيء نفسه بثقة حول عمليتي الضرب والقسمة، في الواقع لقد كان السومريون أول من اكتشفوا أن جمع بعض الأعداد المتماثلة يمكن أن يرقى إلى مرتبة الضرب، وبالتالي **هم مخترعو جدول الضرب**، حيث أكملوه منذ بداية الألف الثالث ق.م، هذا بالإضافة لاختراعهم عملية القسمة[٢٥].

لقد أظهرت التنقيبات الأثرية معلومات عن **التجارة البابلية**، أكثر بكثير من المعلومات عن التجارة السومرية، فهناك عدد لا يحصى من ألواح الطين التي هي في الحقيقة وثائق تجارية، وفي أساسها الرياضي أحيانا ما يشرح كثيرا من المسائل الرياضية، وتحتوي هذه الألواح على معلومات حول النشاطات التجارية، ومخزونات البيع، وبيانات الحسابات والإيصالات (**الفاتورة**) وحركات البيع، وعددها يفوق بكثير مقدار غيرها من الألواح، التي دون عليها قرارات ملكية أو نصوص دينية. ومن وجهة النظر الرياضياتية، فإن أحد الاكتشافات الأكثر أهمية في هذه الألواح هو الوقوف على حقيقية استعمال البابليين "للجداول" لعدد كبير من الإجراءات، كالجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور والجذور التربيعية ib.si والتكعيبية ba.si وغيرها كثير[٢٦].

- **الجبر:**

لقد استطاع **السومريون** القيام بالكثير مما يعادل العمليات الجبرية المألوفة عندنا اليوم، مثل اختزال الرموز المتماثلة، وحذف كمية مجهولة بالتعويض، وإدخال كمية مجهولة مساعدة، وعلى الرغم من انتفاء الرموز الجبرية انتفاءً كلياً عند السومريين؛ إلا أن ذلك لم يعق جهود السومريين في حل المعادلات، حيث عرفوا الواسطة الجبرية لإيجاد القيم التقريبية المتتابعة لجذر العدد التربيعي، وتعامل السومريون

[٢٤]) محمد شطب، المرجع السابق، ص٦.
[٢٥]) زاماروفسكي، في البدء كانت سومر، ترجمة حسان، وزارة التعليم العالي، دمشق ٢٠١٥م، ص١٧٩.
[٢٦]) جون ماكليش، المرجع السابق، ص٥٤.

مع الأعداد السالبة التي ظلت أوروبا تجهلها حتى أدخلها لها ليوناردو فيبوناتشي Leonardo Fibonacci (١١٧٠– ١٢٥٠م) في القرن الثالث عشر الميلادي[٢٧]. بينما استعاض **البابليون** عن الأسلوب السائد اليوم في استعمال «س، ص، ع» للدلالة على قيم المجهولات التي علينا إيجادها، إذ يتحدثوا عن «ضلع» على أنه مجهول و«مربع» كقوة مرفوعة إلى العدد «٢». وإذا كان هناك مجهولان، فإنهما كانا يسميان «طولاً» و «عرضاً» وكان جدائهما (حاصل ضربهما) يسمى «المساحة»، وإذا كان هناك «٣» مجاهيل، فإنها كانت تسمى «طولاً» و «عرضاً» و «ارتفاعاً»؛ وكان جدائها هو «الحجم». وهذه المصطلحات شاهدٌ على الارتباط الوثيق بين النظريات والمسائل العملية[٢٨].

لقد عرف البابليون كما السومريين حل المعادلات الجبرية من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، واتبعوا في حلها عمليات مدهشة، وبلغت براعتهم الجبرية درجة كبيرة كاختزال الرموز المتماثلة، وحذف كمية مجهولة بالتعويض، وإدخال كمية مجهولة مساعدة[٢٩]. وعرفوا المعادلات التربيعية والتكعيبية، وكانت هذه المعادلات تُرجع إلى أنماط معيارية، فالمثال كان هناك ستة أنماط من المعادلات التربيعية لكل منها نموذج حل معياري[٣٠].

- **الرياضيات الهندسية:**

كانت حضارة الشرق العربي القديم حضارة زراعية بالدرجة الأولى، وحتى يحافظ أبناء هذا الشرق العظيم على حضارتهم بنوا الترع والعبارات والسكور والسدود وحفروا قنوات الري ومصارف المياه، وكل هذه الخدمات تمت وفق **قواعد الهندسة المائية**[٣١]. كما شيد إنسان الشرق العربي القديم المعابد، والقصور، والقلاع وتحصينها، والبيوت السكنية، باستخدام قواعد **الهندسية الإنشائية**؛ حيث دفعتهم منشآتهم المعمارية لمعرفة وحساب ثقل المواد ووزنها وضغطها. لقد برع مهندسو الشرق القديم في مجال الرياضيات الهندسية، منذ أيام السومريين إذ تمكنوا **من حساب مساحة المربع والمستطيل والمثلث، ومساحة المعيّن، وفي وقت متأخر استطاعوا حساب حجم المكعب والمشور، كما عرفوا خواص الدائرة وحسبوا محيطها، وبينوا علاقة المحيط بالقطر وعرفوا مساحتها وحسبوا حجم**

(٢٧) المرجع السابق نفسه، ص١٧١.
(٢٨) جون ماكليش، المرجع السابق، ص٥٥.
(٢٩) عُلا عطية، المرجع السابق، ص٦٧.
(٣٠) جون ماكليش، المرجع السابق، ص٥٥.
31) Hodgkin, L., Op. Cit., 2005, p.16

الكرة[٣٢]، **وقسموا محيط الدائرة إلى ستة أقسام متساوية الأضلاع، ومقدار كل زاوية فيها ٦٠ درجة**[٣٣]. **وقد تمكن البابليون أيضا من استخراج مساحة مثلث من أطوال أضلاعه، كما توصلوا إلى صيغة حجم الهرم وأشكال هندسية أخرى**[٣٤]. ولعل اللوح المسماري الرياضي الهندسي الذي عثر عليه في **تل حرمل** (على أطراف بغداد الجنوبية) خير مثال على درجة الرقي التي وصلت لها الرياضيات الهندسية في المشرق العربي القديم، ويمثل هذا اللوح **مبدأ تشابه المثلثات**، أي ما يعرف بنظرية تشابه المثلثات القريبة من نظرية إقليدس Euclid اليوناني. ويتضمن اللوح في أعلاه رسما لصورة مثلث قائم الزاوية قسم بدوره إلى أربعة مثلثات صغيرة، وقد أعطى الكاتب أبعاد المثلث المذكور ومساحات المثلثات الصغيرة ودون تحت الشكل الهندسي شرح وافي للمسألة الهندسية وكيفية حلها[٣٥].

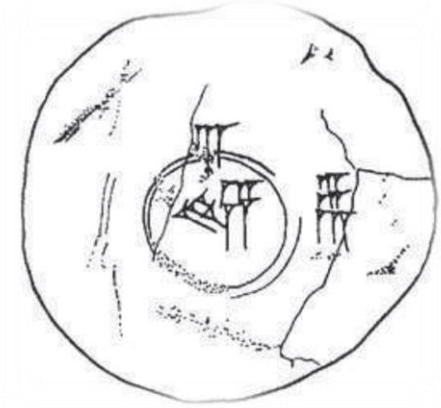

اللوح YBC 7302 لحساب مساحة الدائرة

ومشاكل الجذر التربيعي البابلية أوصلت إلى العلاقة بين قطر المربع وضلعه، (إن طول القطر بلغة الرياضيات المعاصرة هو $\sqrt{2}$)، وهي نظرية هندسية تفيد بأن مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين. إن العلاقة بين قطر المربع وضلعه كانت حالة خاصة عند الإغريق، الذين ينسبون فضل اكتشافها إلى فيثاغورث Pythagoras الذي عاش بين سنتي (٥٤٦-

[٣٢]) زاماروفسكي، المرجع السابق، ص١٨٠.

[٣٣]) مصطفى محمود سليمان، تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى ومكانة الحضارة الإسلامية فيه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م، ص٣٥٩.

[٣٤]) جون ماكليش، المرجع السابق، ص٥٧.

[٣٥]) قصي منصور عبد الكريم، شذرات من كنوز التراث العراقي القديم في جوانب من العلوم والمعارف الإنسانية، مجلة عصور، عدد ١٤-١٥، الجزائر ٢٠١٤، ص١٧.

٤٩٧ ق.م)، لكن الثابت أن البابليين اكتشفوا هذه العلاقة قبله بألف سنة على أقل تقدير[٣٦]، حيث كانوا يتفننون في إيجاد ثلاثيات فيثاغورث، ومن بينها مثلثات قائمة الزاوية.

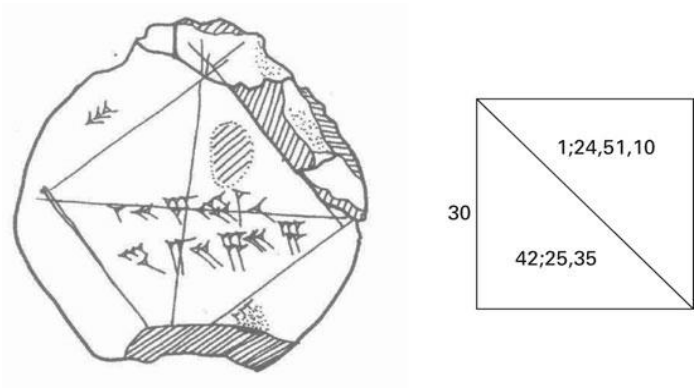

لوح طيني رقم (YBC 7289) يمثل مسألة هندسية تم فيها حساب قطر المربع

الوجهان الأمامي والخلفي لكتاب في علم الهندسة من العصر البابلي القديم، يعود تاريخه إلى ما يقرب 1750محفوظ في المتحف البريطاني، لندن.

تحت رقم BM ME 15285

- **المساحة ونظام الأوزان والمقاييس:**

لقد طور السومريون مع الاكتشافات العددية الأساسية ما يمكن تسميته بترسيخ وحدات القياس، فقد اخترعوا وحدات لقياس الطول والمساحة والحجم والوزن، وإن لم تكن هذه الوحدات تستعمل بشكل موحد على مستوى المدن السومرية كلها، إلا أنه من المهم

[36]) Katz, V. J., Op. Cit., 2009, p.19

الإشارة إلى أن هذه الوحدات كانت ثابتة في بعض المدن، وفي المراحل الأكثر طولا[٣٧]. لقد كانت وحدة الذراع (šuk) (نحو ٥٠سم أي ٢٠ أنش) تستخدم لقياس الطول، وكانت الذراع تقسم إلى ٣٠ وحدة أصغر، أي لـ ٣٠ إصبع (is–uš) وهو الوحدة الأساسية لمقاييس الطول، بينما كانت القصبة (ig) تساوي ٦ أذرع، ثم يأتي دو–غار (du–gar) ويساوي قصبتين، ثم يأتي الحبل (šè) يساوي ١٠ دو–غار، ثم يأتي الفرسخ (danna) (الدانا) ويساوي ١٨٠٠ دو–غار، وكانت تقاس به المسافات الكبيرة «أو يسمى البيرو في وقت متأخر وتقدر بحوالي ٨٥٥٠ متراً»[٣٨].

أما وحدة **قياس المساحة** فهي السار sar (ويساوي ٣٥,٢٨ مترا مربعا؛ ويترجم حديقة) وكانوا يقسمون السار إلى ٦٠ وحدة صغيرة تدعى «الجن gín»، وإلى ١٨٠ وحدة أصغر تدعى «الشيء še». وكان السار يساوي دو–غار مربع: $(du)^2$ –gar، وكان الحقل (iku) يساوي ١٠٠ سار، والبور (bùr) يساوي ١٨ حقل، بينما الشار (šàr) يساوي ١٠٨٠حقل. وكانت وحدة **قياس السعة** هي «السيلا sila» والـ sila3 تساوي ٦٠ جن (gín)، والكور (gur) تساوي ١٤٤ سيلا (sila)، والكور الكبير (gur–lugal) تساوي ٣٠٠ سيلا (sila)، و٧ كور (gur7) تساوي ٣٦٠٠ سيلا sila مع الإشارة إلى أن السيلا sila تساوي (٠,٨٥٠) ليتر بمقياس اليوم. كانوا يستعملون لقياس الوزن وحدة المانا (ma–na) «حوالي ٥٠٠ غرام» وكانوا يقسمونها إلى ٦٠ وحدة صغيرة تدعى «الجن gín» «الشاقل Shekel فيما بعد» وكل جن يساوي ١٨٠ شاقل، أي الوحدة الأصغر التي تدعى «الشيء še». وكان الـ gu يساوي ٦٠ مانا[٣٩]. لقد ابتكر السومريون كل هذه الوحدات وحدهم دون وجود نموذج سابق يحذون حذوه[٤٠]. ويذكر فضل البابليين في التجديد الذي أحدثوه في نظام الأوزان والمقاييس انسجاما مع إمبراطورية تجارية فسيحة الأرجاء، إن هذا النظام الجديد للأوزان والمقاييس ظل ساريا في المشرق العربي القديم طوال ٢٠ قرناً، وكانت وحدته الأساسية هي الشاقل (١٠ غرامات تقريبا، أي نحو ربع أونصة) والوحدتان الأكبر كانتا مينا Mina وتالنت talent، وكانت هذه الوحدات تستعمل أيضا في المعاملات[٤١]. وقد استخدم الآشوريون نظام المقاييس والأوزان البابلي بعد أن أدخلوا عليه بعض التعديلات.

---

[٣٧]) زاماروفسكي، المرجع السابق، ص١٨٠.

[38]) Kramer, S. N., Op. Cit., 1970, p.107

[39]) Ibid, p.107

[٤٠]) زاماروفسكي، المرجع السابق، ص١٨٠.

[٤١]) جون ماكليش، المرجع السابق، ص٥٤.

المحاضرة الرابعة

الطب في تاريخ الشرق العربي القديم

لقد **رافق المرض** الإنسانَ مُنذ وجد على سطح هذا الكوكب، ولا شك أنه لاحظ أعراضًا غير طبيعية تطرأ عليه، أو على أحد أفراد أسرته تجعله سقيمًا، وقد سعى الإنسان إلى البحث عن أسباب هذه الأعراض لتجنبها، وتجنب ما يرافقها من آلام شديدة. وقد تفشت الأمراض زيادة بين البشر منذ قاموا بالزراعة والاستقرار وتدجين الحيوانات؛ إذ انتشرت بينهم أمراض جديد معدية، مثل مرض الجدري الذي انتقل إلى البشر من الماشية، ومرض الحصبة الذي انتقل إلى البشر من الدواجن والكلاب، ومرض شلل الأطفال، والتيفوئيد، والتهاب الكبد، والسعال الديكي؛ الذي انتقل إلى البشر من روث الحيوانات، ولا شك أنها فتكت بعشرات الأفراد، وهذا ما يفسر سبب انخفاض معدلات الأعمار في مرحلة فجر الحضارة(١).

كما أن هناك أنواع معينة من **الأمراض ترافق الإنسان** طوال عمره؛ فعند النساء سببها أمور الإنجاب والحَبَل والولادة، وعند كلا الجنسين سببها ظروف الوسط المحيط، أو شروط الحياة القاسية، ولا شك أن الإنسان قد تكيف مع بعض هذه الأمراض، كما تكيف مع وسطه المحيط، إذ تمكن من الدافع عن نفسه وحمايتها من الحشرات السامة، والزواحف، والحيوانات المفترسة، كما ضمد جروحه وكسوره(٢). ولما كان إنسان هذا الشرق العريق قد جرب منذ ما قبل التاريخ أنواعا مختلفة من **الأعشاب** كغذاء، كما هو الحال في قرية أبو هريرة وغيرها، فإنه ودون شك قد وجد أن لبعض هذه النباتات تأثيرات دوائية مختلفة، تظهر آثارها على الجسد سريعا، لذلك كان يستخدمها كلما اقتضت الحاجة لذلك. ويؤكد موقع شاتل هيوك Çatal Hüyük المؤرخ بالألف السابع قبل الميلاد في جنوب تركيا، استخدام نبات القنب الهندي كمادة مسكنة للآلام. ومن المعرفة المتراكمة لخصائص هذه النباتات نشأت المعرفة الطبية(٣).

ثانيا: مفهوم المرض في حضارات الشرق القديم:

لقد أهلت العبقرية العراقية– السورية إنسان الشرق القديم للتغلب على المرض في أكثر من مناسبة، أما الحالات المستعصية تمت إحالتها إلى قدرات غيبية لا طاقة لأحدٍ بها. ورغم التطور الحضاري، إلا أن مفهوم المرض لدى أبناء الشرق القديم كان متشابها،

(1) Zebroski, B., A Brief History of Pharmacy, Humanity's Search for Wellness, Routledge, New York 2016, p.12.
(2) Ibid., p.12.
(3) Stein, D, L., Psychedelics and the Ancient Near East., publication of friends of ASOR., p.30, 31.

فالمرض: **لعنة أو عقاب** تفرضه الآلهة على أشخاص انتهكوا –هم أو أحد أفراد أسرتهم– القوانين الأخلاقية[٤]، وبالتالي يكون سبب المرض هو تخلي الإله الحارس عن حماية الشخص المذنب، نتيجة ما اقترفه من إثم، أو نتيجة سحر صنعه شخص ما له. وتؤكد لنا معظم النصوص المسمارية الطبية التي وصلتنا من بلاد سومر وأكاد وبابل وآشور وماري، أنها مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بأمور السحر والعرافة، وبالتالي الجسم المريض هو جسد اخترقته القوى الشريرة[٥]. وبناء على ما تقدم؛ كان من الواجب على الطبيب أن يكشف **الخطيئة** التي أدت للمرض، وهكذا كان بوسع الطبيب أن يشخص نوبات الملاريا واليرقان وانسداد الأمعاء والصرع أو السكتة الدماغية، من خلال ما تعلّمه من علوم طبية بحته، وما حصل عليه من معارف علمية، مع ضرورة البحث عن الخطيئة السابقة للمرض[٦]. لكن ما لبث الطب مع مرور الزمن أن أخذ يعتمد على العقاقير النباتية دون غيرها، وأمسى الأطباء مقتنعين بوجود **أسباب غير روحية** تؤدي لحدوث المرض، بدليل أنهم كانوا مضطرين لقطع العلاج –لأسباب أخلاقية– في الحالات الميؤوس منها[٧]: «فإذا استمر المرض أربعة أيام، وبقي المريض يضع يده على بطنه من شدة الألم، وكان وجهه مصفرا فإنه سيموت».. و«إذا كان مريضا لخمسة أيام وكان جلده مصفرا وعيناه محمرتين فإنه سيموت».. و«إذا كانت أعضاؤه مشلولة وكان ينزف دما من دبره؛ فإنه مصاب من الخلف ولا شك أنه ميت»[٨].

ثالثا: آلهة الشفاء والمرض:

لقد ترجم سكان الشرق العربي القديم جميع القوى الخارقة للطبيعة، والمتحكمة بأمور حياتهم المصيرية، والتي لم يفهموها، على أنها آلهة، ثم عبدوها لاكتفاء شرها وكسب بركاتها، وبذلك حققوا نوعا من الاستقرار النفسي والشعور بالأمان، فالإنسان بطبيعته يخشى المجهول، ولما كانت قوى الطبيعة شيئا يجهلونه، فإنهم حاولوا مهادنته وكسب رضاه، فجعلوا لكل شيء إله؛ إله للرعد والعواصف، وإله للشمس الحارقة، وآخر للمرض، الخ. وحتى في الباب الواحد فإنهم فصلوا وخصصوا، وهكذا الأمر في الطب:

وهكذا كان الإله نينيب Ninib إله الشفاء في **بلاد الرافدين**، بينما عُدَّ الإله أيا Ea (إله الماء) الأب الروحي أو الأول لجميع أطباء الشرق القديم، وهذا أمر طبيعي بحكم أن الماء مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالصحة والشفاء، كونه مادة طاهرة مطهرة، كما أن غسل البدن والثوب بالماء، والحافظة على نظافة الجسد والمكان؛ هو الخط الوقائي الأول ضد الامراض. بينما عُدَّ الإله نابو Nabu إلهاً لجميع

(٤) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، منشورات جامعة دمشق، ط٦، دمشق ٢٠٠١م، ص٣٦.

(5) Supady, Jerzy., Medicine in Ancient Mesopotamia, Medical University in Lodz, Poland., October 2019, p.14.

(٦) جان شار سورينا، تاريخ الطب، من فن المداواة إلى علم التشخيص، ترجمة إبراهيم البجلاتي، مجلة عالم المعرفة، العدد ٢٨١، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٥م، ص٢٤.

(٧) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٣٦.

(٨) فاروق الراوي، بالاشتراك مع نخبة من المؤلفين، حضارة العراق، ج٢، بغداد ١٩٨٥م، ص٣٣٢.

العلوم عند سكان الشرق القديم بما فيها الطب، وقد أقيم له معبد ضمن أول مدرسة للطب في العراق[٩]. ومن بين آلهة الشفاء نذكر الربة (إنانا) عشتار Ashtar المسؤولة عن جميع قضايا الأمراض النسائية، وكل ما يتعلق بأمور الأمومة والخصوبة الإنجاب والولادة. أما إله النار لوغال غيرّا Lugal-Girra فكان يطهر الإنسان بلهبه ويطرد منه المرض والجن[١٠]. وكانت هناك الربة گولا Gula إلهة الصحة والشفاء في مجمع الآلهة السومري، وكانت تلقب بـ«السيدة الطبيبة العظيمة» ورمزها الكلب، وهناك نص مسماري يتضمن مديحًا لنفسها على لسانها: «أنا الطبيبة، أعرف كيف أشفي، إنني أحمل معي كل الأعشاب، وأنا أملك حقيبة ممتلئة بالتعاويذ الفعالة، وأحمل معي نصوصاً عن الشفاء»، أما الربة نينورتا Ninurta فقد اختصت بمنح الصحة والعافية للناس. بينما كان نينگيزيدا Ningishzida يلقب بسيد الأطباء/ نين–آزو Nin-Azu، والذي كان يرمز له بأفعى ملتفة على العصا[١١]. وقد تسابق الملوك والأمراء في بلاد الرافدين لبناء المعابد للآلهة الراعية للطب، ومن بينهم الملك السومري جوديا Gudea (٢١٤٤– ٢١٢٢ ق.م)؛ حاكم مدينة لغش Lagash، جنوب بلاد الرافدين، وأشهر ملوك عصر الأحياء السومري[١٢].

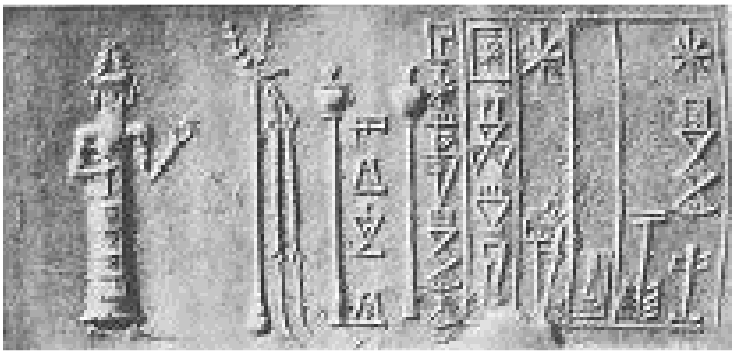

طبعة ختم أسطواني من عصر سلالة أور الثالثة (حوالي ٢١٤٤ – ٢١٢٢ ق.م)، يُظهر – (نين–آزو) سيّد الأطباء وهو يقوم بإعداد الأدوية، في مكان يشبه مختبر صيدلاني، إذ تبدو في المشهد نباتات وأعشاب ومجموعة من القدور والأواني.

ومقابل آلهة الشفاء كان هناك **آلهة أخرى تسبب المرض:** فالإله نرگال Nergal الذي كان يرمز له بشمس منتصف النهار المحرقة في فصل الصيف، كان يسبب المرض للإنسان والحيوان على حد سواء، إذ لم يكن في مقدور سكان الشرق القديم تفسير سبب وفاة الإنسان بسبب ضربة الشمس، أو تفسير سبب تتفشى الأوبئة ترافقا مع ارتفاع دراجات الحرارة، لذلك فسروا الأمر كما لو أن إلهًا تعهد بقتل كل من خرج في هذه الفترة من النهار، وهذا ينسجم مع لقبه شارابّو Sharappu (المحرق)، وقد عُدّ إلهاً للأمراض

(٩) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٣٦.

(١٠) ك. ماتفييف و أ.سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة، ترجمة حنا آدم، دمشق ١٩٩١م، ص١٣٨.

(١١) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٢٧.

(١٢) قصي عبد الكريم، شذرات من كنوز التراث العراقي القديم في جوانب من العلوم والمعارف الإنسانية، مجلة عصور، عدد ١٤–١٥، الجزائر ٢٠١٤، ص١٨.

والأوبئة. وتذكر أسطورة **إرّا** Erra «إله الطاعون» أن يد الإله نرگال هي الطاعون، وفي كثير من الأحيان تتم المطابقة بين نرگال وإرّا. كما إن بعض الآلهة وصفت في بعض الأحيان كروح شريرة، كالإله **نمتارو** Namtaru الذي كان بيده ستين نوعا من المرض، أهمها مرض الحلق(١٣)، **وأشاكو** Ashaku الذي ينشر السل، **وتيو** Tiu مرض الشقيقة، وكان Axaxuzu ينشر مرض اليرقان(١٤).

رابعا: فئات الأطباء:

لقد صُنف الأطباء في الشرق القديم إلى ثلاثة زمر، وهم:

- **العراف:** وكان يطلق عليه اسم بارو Barû (من كلمة باري العربية، بمعنى الشافي) وظيفته الإنذار والتشخيص، إلا أن عمله كان يتعدى ذلك؛ فيسعى إلى معرفة أسباب حدوث المصائب. وفي بعض الأحيان كان المريض يستشيره إلى أين يذهب للمعاينة، إلى الراقي؟ أم إلى الطبيب؟
- **الراقي:** وكان يعرف بالاسم الأكادي آشيبو Ašipu، ووظيفته طرد الشياطين من الشخص المريض، أو من البيت أو من القرية، من خلال الرقية الشفهية أو التعاويذ(١٥). ويمكن لنا أن نطلق على عمله اسم «السحر الأبيض»، وقد ظهر في مملكة أوغاريت السورية ثلاث نصوص تعاويذ لطرد الشر: أحداها لشفاء شاب من العجز الجنسي، والتعويذة الثانية ضد العين الشريرة، أما التعويذة الثالثة فهي ضد سُم العقارب والأفاعي التي يرسلها السحرة ويستأجرها العدو(١٦).
- **الآسي:** ويطلق عليه اسم آزو A–zu باللغة السومرية، منذ عصر فارا ٢٧٠٠ ق.م، ثم انتقلت نفس التسمية إلى الأكادية بلفظة آسو Asû والتي تعني في الاثنتين «العارف بالماء»، أي التعرف على أسباب المرض عن طريق الماء(١٧)، وكان آسو هو الطبيب الحقيقي الذي يحضر الدواء بيده ليعالج به مرضاه، كما كان يقوم بالعمليات الجراحية، وليس له أي نشاط ديني(١٨). ويقابل اسمه في اللغة العربية كلمة الآسي بمعنى الشافي والطبيب المداوي.

(١٣) أسامة يحيى، السحر والطب في الحضارات القديمة، دراسة تاريخية مقارنة، دار آشور بانيبال، نينوى ٢٠١٥م، ص٢١.

(١٤) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٣٧.

(15) Zebroski, B., Op, Cit., 2016, p.17.

(١٦) دوني باردیه، مملكة أوغاريت أصل الأبجدية، ترجمة: يمام بشور، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١٨م، ص٢٧٨.

(17) Kramer, S. N., The Sumerians, 4ed, University of Chicago Press, 1970, p.99

(١٨) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٣٩.

خامسا: دراسة الطب التجريبي:

إن أقدم اسم طبيب وصلنا هو اسم الطبيب «لولو Lulu»؛ إذ عثر اسمه على لوح تم اكتشافه في مدينة أور Ur جنوب العراق، من قبل عالم الآثار البريطاني ليونارد وولي L. Woolley، وقد أرخ النص بـ ٢٧٠٠ ق.م. ولم يكن الطبيب صاحب مهنة ضيقة، بل إنساناً مثقفًا خبيرًا واسع الاطلاع، في البداية كان عليه أن يذهب إلى المدرسة edubba (بيت الألواح) الملحقة بالمعابد، في الخامسة من عمره، مثله مثل بقية أقرانه، حتى يتعلم القراءة والكتابة المسمارية على نحو صحيح، ويحفظ المئات من رموزها، ويدرس المعارف العلمية والأدبية الشائعة في عصره، وقد تألفت الألواح المدرسية أساساً من مواضيع محضرة من قبل مدرسين مختصين، وكان من واجبات التلميذ نسخها مرات عدة وحفظها، ولا شك أن هذه التصنيفات المختصرة كانت مرفقة بشروح شفهية أو دروس[١٩]. وكانت مرحلة التعليم هذه تستمر عشر سنوات تقريبا، وكان التلميذ الذي يسطع نجمه في المدرسة، يكمل تحصيله العلمي في مدارس طبية متخصصة، وقد تميزت بعض مدن بلاد الرافدين –دون غيرها– بالطب، كما هو حال مدن: أورك Uruk، وإسين Isin، ولارسا Larsa، وبابل Babel، ونينوى Nineveh، وبورسيبا Barsipa، وأور Ur، ونيبّور Nippur[٢٠]، وقد لعبت المدرستان الطبيتان المتخصصتان في أورك وبورسيبا دورا عظيما في تهيئة أطباء الشرق القديم، وغالبا ما كانت المدارس الطبية ملحقةً بالمعبد[٢١].

ولم يكن مبدأ دراسة الطب يختلف كثيرا عن المدرسة التعليمية التي تخرج منها الطالب، إذ يدرس طلاب الطب الألواح المسمارية الطبية، التي كانت تمثل **المصدر العلمي** الأهم لهم، مرفقة بشروح ومحاضرات شفهية يتم تحضيرها غالبا من قبل طبيب مختص يزاول المهنة، والذي يكون أستاذًا محاضرًا في أحدى المدرسة الطبية الكبرى في الشرق القديم[٢٢]. وكانت تحفظ هذه الألواح والرُقم في مكتبة المدرسة الطبية؛ ولا شك أنها تمثل نتاج خبرة الأطباء الأقدم في ممارسة المهنة، وقد عثر على عدد منها في مدن أور ونينوى وماري[٢٣]. وقد كان ملوك الشرق القديم مهتمين بتوفير المراجع العلمية لطلاب الطب، حتى أن آشور بانيبال قد كلَّفَ طبيبًا مشهورا في نينوى، هو الطبيب كيصير آشور Kişir-Aššur، بمهمة كتابة عدد كبير من الألواح الطبية التعليمية، فدونها بنفسه، وتمثل ألواحه نتاج خبرته وخبرة عائلته العلمية في مجال ممارسة مهنة الطب[٢٤].

---

(19) Kramer, S. N., Op. Cit., 1970, pp.98, 99.

(٢٠) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٣٦.

(٢١) ك. ماتفييف و أ.سازونوف، حضارة ما بين النهرين، ص١٣٥

(22) Kramer, S. N., Op. Cit., 1970, p.98

(٢٣) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٣٩.

(24) Laere Emmy, V., Mesopotamian Medicine in Practice: when Archaeology meets Philology, A dissertation submitted to Ghent University in partial fulfilment of the requirements for the degree of Master of Arts in Archaeology., Academic year: 2017 - 2018, p.23.

لقد كانت **الألواح التعليمية الطبية متنوعة ومصنفة حسب المرض** الذي يعاني منه المريض[٢٥]. كما كانت الألواح المسمارية الطبية التعليمية مقسمة إلى ثلاثة أعمدة أو حقول: يذكر في العامود الأول اسم النبات الطبي المجرب أو جزء منه، أو خليط من الأعشاب أو من أجزائها، وفي العمود الثاني يذكر المرض الذي يعالجه اللوح، بينما يختص العمود الثالث بذكر الطريقة الموجزة لكيفية تحضير الدواء، وطريقة استعماله، وأحيانا عدد مرات تجرعه[٢٦].

وبعد أن ينهي الطالب دراسته النظرية، كان يقوم ببعض **الدروس العملية التخصصية**، كالمعاينة والفحص السريري والمراقبة، وكان الطبيب المعالج يقدم تقريرًا عن تطور حالة المريض، كما فعل أحد أطباء نيبّور. وكان أطباء الشرق القديم يمارسون مهنتهم في مستشفيات تعليمية عامة أو خاصة، حيث وجدت في مدينة إسين في جنوب العراق مصحات عامة لمعالجة المرضى، ولاسيما أن إسين كانت مركز عبادة الربة گولا؛ إله الصحة والشفاء في مجمع الآلهة السومري، وكانت هذه المصحات ملحقة بمعبدها. بينما تبين من خلال بعض الرسائل من العصر الكاشي في بابل (١٥٩٥– ١١٥٧ ق.م) وجود مراكز صحية، أو ما يمكن تسميته بمستشفيات، لعلاج مغنيين ومغنيات أحد المعابد في مدينة نيبّور، وكانت من بينهم ابنة الملك.

سادسا: التشخيص والعلاج:

لقد عرف أطباء الشرق القديم الأمراض التي تصيب الجسم من خلال **تشخيص** الأعراض الخارجية، التي تبدو ظاهرة على أعضاء جسم المريض؛ كارتفاع الحرارة، ولون الجلد، ولون العينين، «فإذا كان جسم المريض أصفر، ووجهه أصفر، وعيناه صفراوتان، وبشرته مترهلة، فإنه مصاب باليرقان». كما اهتموا بتشنجات الجسم ومدى قابليته على الحركة، وعرفوا بعض الحقائق عن الدورة الدموية، ومدى تأثير ارتفاع ضغط الدم أو انخفاضه على الإنسان، بعد أن عرفوا كيفية جس النبض، وحساب ضربات القلب[٢٧]. وقد شخص أطباء الشرق القديم الكثير من الأمراض من خلال لون البول والدم؛ كالاستقصاء، والحصى في المثانة، وعرفوا مرضا قريبا مما نعرفه اليوم باسم (البلهارزيا)، ومرض آخر قريب من مرض السيلان الزهري، بعد فحص بول المريض؛ فإذا كان بلون ماء الشعير، كان المريض مصابا به. والمهم في العملية هو إدراكهم أن البول جزء من الجسم، ولا بد أن يكون في الجزء بعض مما في الكل[٢٨]. وتشير الرسائل الطبية من العصر الآشوري إلى أن الأطباء عندما كانوا يعجزون عن تشخيص بعض الأمراض وعلاجها؛ يسمون هذه الأمراض «بالأمراض التي لا

(٢٥) جورج سارتون، تاريخ العلم، الكتاب الأول، ترجمة طه باقر وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٠م، ص٢٠٥.

(٢٦) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٣٤، ٣٣٥.

(٢٧) حامد خيري الحيدر، نظرة على الطب في العراق القديم، مجلة الحوار المتمدن، العدد ٤٨٥١، بغداد ٢٠١٥م، ص٣.

(٢٨) كمال السامرائي، الطب وتاريخه عند العرب، مجلة المورد، مج١٤، عدد٤، بغداد ١٩٨٥م، ص١٨.

تشفى»، ومنها مرض تنطبق أعراضه على أعراض القرحة المعدية[٢٩]. وبعد أن يقوم الطبيب المختص بتشخيص المرض يبدأ **بعلاجه** إما بواسطة العقاقير الطبية، أو بالعمل الجراحي، أو حتى بواسطة التدليك بالزيت[٣٠].

سابعا: التشريح:

لقد منعت دروس **التشريح** في المدارس الطبية في الشرق القديم احتراما للميت، إذ مُنع رسميًا في بلاد آشور وبابل فتح الجثة؛ لغرض دراسة تصنيف أعضاء جسم الإنسان. إلا أن أطباء الشرق القديم أوجدوا لأنفسهم طريقة أخرى لزيادة معارفهم التخصصية، حيث كانوا يذهبون لساحة الحرب بعد انتهاء القتال، وهناك تمكنوا من دراسة تصنيف أعضاء جسم الإنسان على جثث قتلى الأعداء[٣١]. وهكذا توصلوا إلى معلومات مهمة ومعرفة جيدة عن تكوين جسم الإنسان، طبيعته، ووظيفة أعضائه الخارجية والداخلية، وذلك من خلال ممارسة مهنتهم وخبرتهم بعلم التشريح، حتى أن تسميات بعض الأوعية الدموية المستخدمة في يومنا، تعود في أصولها لهم، فكلمة شريان العربية وردت في النصوص الأكادية بلفظة شريانو Šeranu[٣٢].

ولعل **الكبد** هو أكثر عضو اهتم أطباء الشرق القديم بتشريحه والتعرف عليه، كونه عضو الدم وأوضح عضو في جسم الإنسان، حتى أنهم اعتقدوا أنه موضع الحياة في جسم الإنسان؛ وقد توصلوا إلى هذا الاستنتاج بعدما لاحظوه على المصاب الذي يفقد وعيه؛ نتيجة نزفه لكميات كبيرة من الدم، وإذا لم تتم السيطرة على النزيف فإن المصاب يفقد حياته، ولما كان الدم هو سائل الحياة، فمن الطبيعي أن يكون الكبد عضو الحياة، فسدس دم الإنسان موجود فيه. وقد تبين أطباء الشرق القديم من دروس التشريح أن الكبد مقسم إلى خمسة فصوص، ولعل معارفهم العلمية عن تشريح الكبد، كانت تزيد عما عرفته أوروبا في عصورها الوسطى[٣٣]. وقد عثر علماء الآثار على كثير من مجسمات تشخيصية للكبد، مصنوعة من الصلصال عليها كتابات مسمارية، كانت تستخدم من قبل المتخصصين في نشأة الأمراض[٣٤].

---

(٢٩) نور الدين حاطوم، صلاح مدني، أحمد طربين، نبيه عاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١: حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، منشورات جامعة دمشق ١٩٦٥م، ص٢٣٥.

(30) Fedorovich, G., Mari Traditional Medicine Origins and Prospects, International Journal of Complementary & Alternative Medicine, Volume 8 Issue 1, 2017, p.2.

(٣١) ك. ماتفييف و أ.سازونوف، حضارة ما بين النهرين، ص١٣٥

(٣٢) حامد خيري الحيدر، نظرة على الطب في العراق القديم، ص٣.

(٣٣) جورج سارتون، تاريخ العلم، ص٢٠٢.

(٣٤) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٣٧.

ثامنا: درجات الأطباء:

لقد كان الأطباء على درجات متفاوتة في عملهم، حسب خبرتهم وتخصصهم، فمنهم الطبيب العادي الذي يدعى (آزو) أو (آسو). أو أن يكون بدرجة مهنية متقدمة كالطبيب الأخصائي أو رئيس الأطباء[٣٥]. وكان الأطباء يرقون في مراتبهم العلمية، وكانت ذروة الهرم الطبي تتمثل في رئيس الأطباء Rab âsi[٣٦]، الذي يكون عادة أقدمهم في هذه المهنة، وأكثرهم خبرة ودراية بأمور التطبيب والعلاج. وأخيرا يأتي في أدنى سلم الهرم الطبي، الأطباء **المتمرسون**؛ الذين لا يزالون تحت التدريب، والذين يطلق عليهم بالأكادية «آسو أكاشكو». وكان الأطباء على اختلاف درجاتهم العلمية يجتمعون في جمعيات صغيرة أشبه بالنقابات؛ لتنظيم عملهم وتحديده[٣٧]، ونحن نتملك مثال حقيقي على مجلس أطباء معترف به في بلاد آشور[٣٨].

تاسعا: تخصصات الأطباء:

لقد كان على الطبيب أن يزاول مهنته باختصاصه، إذ ورد في النصوص الطبية والقانونية المسمارية أسماء عدد من تخصصات الأطباء منهم الجراحون، ومجبري العظام، وأطباء الأسنان، وأطباء العيون الذين يسمون بالأكادية (آسو عيني)[٣٩]. وقد اشتهرت مملكة ماري السورية بتفوق الأطباء المختصين بأمراض الأطفال فيها[٤٠]. كما وردت أشارت إلى وجود طبيبات من النساء في مملكة إبلا (طبيبة: آزومي= Azu-mi)، وفي مملكة ماري (طبيبة: آساتو= Asâtum)، وكانت الطبيبات مختصات بالقبالة، وعمليات التوليد، وعلاج ورعاية مشاكل الصحية النسائية، وكان على القابلة أو الطبيبة أن تحمل معها الأدوية والعقاقير، فضلا عن لبنة كانت تستخدم لإتمام عملية الولادة عليها. والأهم مما تقدم هو أن نصوص ماري تحدثت صراحة أن النساء المريضات في القصر الملكي؛ كنّ يتلقين العلاج على أيدي طبيبات نساء، لا على أيدي أطباء ذكور، إذ يرد في أحد النصوص أن كبيرة الكاهنات في مملكة ماري كان لها طبيتها الخاصة المسؤولة عن رعاية أمورها الصحية (الطبابة= آسوتو= Asûtu). بينما كانت الطبيبات يتولين رعاية أمور الأطفال من الجنسين[٤١].

---

(٣٥) حامد خيري الحيدر، نظرة على الطب في العراق القديم، ص٢.

(٣٦) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٣٦.

(٣٧) حامد خيري الحيدر، نظرة على الطب في العراق القديم، ص٣.

(٣٨) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٣٧.

(٣٩) حامد خيري الحيدر، نظرة على الطب في العراق القديم، ص٣.

(40) Arbøll, T. P., Medicine in Ancient Assur, A Micro-historical Study of the Neo-Assyrian., Leiden; Boston 2021, p.107.

(٤١) محمد عبد القادر الرفاعي، المرأة في ماري، منشورات الهيئة العامة للآثار والمتاحف، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١١م، ص٨٤.

عاشرا: ممارسة المهنة:

تبدأ ممارسة المهنة بأداء القسم أو اليمين، وهو قسم يحلف فيه الطبيب أن لا يخون المهنة[٤٢]، وكان الأطباء يمارسون مهنتهم ويقومون بعملهم في المكان والزمان الذي يريدونه، إلا أن أجورهم محددة بموجب القانون. وكان إقبال الناس على هؤلاء الأطباء حسب شهرتهم التي كانت تزداد أو تنقص بحسب نجاحهم في المداواة[٤٣]. وقد انقسم الأطباء في هذا الجانب إلى نوعين، الأول كان يعمل فيما يشبه الحانوت أو العيادة البدائية، يستقبل فيها المرضى ومن لديه مشكلة صحية ليقدم لهم فيها العلاج اللازم مقابل أجر معلوم. أما النوع الثاني فكانوا يسمون الأطباء الجوالين، وهؤلاء كانوا يتنقلون بين الأحياء السكنية أو بين المدن بأزياء خاصة تميزهم عن غيرهم؛ حاملين ما يحتاجونه من أدوات وأدوية وعقاقير بسيطة عارضين خدمتهم على عوام الناس لقاء أجر[٤٤]. وهناك مصدر غير مباشر عن هيئة الطبيب Asû، إذ وصفت لنا بعض النصوص الأدبية البابلية هيئات هذا النوع من الأطباء برؤوسهم الحليقة، وملابسهم الأنيقة، وما يحملونه معهم من حقائب[٤٥]. وقد ترك لنا بعض الأطباء **أختامهم الأسطوانية**، إحداها كان خاتم طبيب (أرخ بـ ٢٢٠٠ ق.م)، وهو عبارة عن ختم أسطواني طبي صغير نقش عليه اسم صاحبه، من أجل تسجيل اسمه على الألواح الطينية (الوصفات)، وعلى الختم رسم إله الطاعون إرّا. كما أظهرت طبعات أختام أماكن علاج المرضى، أو أطباء وهم يقومون بعلاج مرضاهم، كان من بينها الأختام الأسطوانية المكتشفة في مدينة لغش السومرية، ولا شك أن لهذه الأختام أهمية كبيرة لما تحمله من رموز ودلالات، كما عُرف بعض الأطباء بها[٤٦].

وفي مقابل هؤلاء الأطباء الأحرار تبين لنا رسائل مملكة ماري عن وجود **أطباء رسميين** يعملون في خدمة الدولة وحكام المناطق، وهم كغيرهم من الموظفين يعيشون في البلاط ويتبعون الملك مباشرة، وللملك الحق في أن يرسلهم لخدمة من يريده بمهمة مؤقتة أو دائمة دون استشارتهم[٤٧]، فالحكمة اللاتينية «الرئيس لا يهتم بصغائر الأمور» لا يمكن تطبيقها في ماري، فملكها زمري ليم Zi-im-ri-li-im (١٧٨٢- ١٧٥٩ق.م) كان يهتم بكل شيء بأدق تفاصيله، إذ تبين لنا سجلات ماري أنه كان يتلقى رسائل من حكام

---

(٤٢) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٣٦.

(٤٣) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٤٢.

(٤٤) حامد خيري الحيدر، نظرة على الطب في العراق القديم، ص٣.

(٤٥) قصة جميل نينورتا Gimil- Ninurta هي: قصة من الأدب البابلي، ذات طابع ساخر، تتحدث عن شاب فقير من مدينة نيبّور (نفر) في جنوب بلاد الرافدين، قام بمجموعة من الحيل للانتقام من حاكم المدينة الذي أهانه منها أنه «أدعى أنه طبيب من إسين، فحلق رأسه تشبهًا بأطباء ذلك العصر، وحمل معه بعض الأشياء مما كان يحمله الأطباء عادة معهم». **انظر**: فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٩م، ص٣٠٥.

(46) Laere Emmy, V., Op. Cit., 2017 - 2018, p.7.

(٤٧) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٤٢.

المدن التابعة له، تشمل طلبات رجاء متنوعه من بينها رجاء إرسال طبيب أذنيه مختص إلى مدينة تابعة لماري، تبعد عنها نحو مائة كيلوا متر تقريبا، يقول فيها حاكم هذه المدينة مخاطبا الملك زمري ليم: «أحدث مولاي، هكذا يقول خادمك يقيم–عدو، إن أحد أطفالي مريض، يوجد تحت أذنه قيح، وقام طبيبان بتضميد أذنه ولكن الحمى hammu لم تتغير، هل يأذن مولاي بإرسال طبيب لي... ليفحص حمى الطفل ويضمده»، ولا شك أن هذا الطبيب سيكون أكثر قدرة من الأطباء الموجودين في خدمة حاكم هذه المدينة(٤٨). ولم يقتصر الأمر على الملك بل تعداه إلى الملكة؛ حيث كانت شيبتو Šibtu زوجة زمري ليم وابنة ملك حلب (يمحاض) ياريم ليم، قد أرسلت رسالة إلى أحد الحكام التابعين لماري، ويدعى كبري داجان Kibri–Dagan (منطقة ترخا) تطلب منه الاهتمام بامرأة مصابة بمرض القلب(٤٩).

لقد تمتع الأطباء **بمكانة اجتماعية رفيعة ومرموقة** عند عامة الناس وعند الملوك، حتى أنهم كانوا يؤلفون قسمًا من حاشية الملك(٥٠). وبما أن عدد الأطباء الذين كانوا يعملون في خدمة الملك قليل، لذلك كان يخشى عليهم، وبالتالي كانوا يعفون من مرافقة الجيوش أثناء الحرب والقتال خوفا على حياتهم(٥١). وإمعانا في أهمية الأطباء تذكر لنا النصوص المسمارية أن الطبيب كان يحظى بمكانة رفيعة في قصر الملك في خاتوشا؛ عاصمة بلاد خاتي Mat Hattie *، لا سيما أنهم يكرسون جهودهم لعلاج أفراد العائلة الحاكمة، والنخبة، فضلا عن مساهمتهم في علاج أفراد المجتمع، وخاصة في أوقات انتشار الأوبئة والأمراض(٥٢).

لقد كان على الطبيب أن **يرفع تقارير دورية إلى الملك** ليضعه في صورة ممارسته للمهنة، ففي أحد النصوص العائدة لعهد الملك الآشوري أسرحدون؛ وهي رسالة موجه من الطبيب (أوراد–نانايا) إلى الملك يعلمه فيها حالة المريض الذي أصيبت عيناه بالتقرح، ومفادها: «إلى سيدي الملك من خادمك أوراد–نانايا الذي يبعث إلى سيدي الملك تحياته القلبية الصادقة، ويتوسل إلى الربتين نينورتا وگولا أن يمنحانه الصحة والسعادة، إن الرجل الذي يشكو من تقرح في عينيه، أصبح الآن أفضل بكثير، إذ كنتُ قد وضعتُ له ضمادًا خفيفًا على عينه البارحة، وفي المساء كشفت الضماد الذي وضعته، فوجدت عليها بقعة من الصديد بحجم أظفر الأصبع الصغير، أياً كان الإله الذي وضع يده على هذا المريض فإن حالته الآن جيدة. ليدخل السرور إلى قلب سيدي الملك، وليعلم أن المريض سيشفى

(٤٨) أندرية بارو، ماري، ترجمة رباح نفاخ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٩م، ص١٧٨، ١٨٨.

(٤٩) ثلما ستيان عقراوي، المرأة ودورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، وزارة الثقافة، بغداد ١٩٨٧م، ص٢٤٦.

(50) Kramer, S. N., Op. Cit., 1970, p.99.

(٥١) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٤٢.

* الختيون: هم سكان الأناضول القدماء، وهم شعوب هندو–أوربية، ينسبون إلى عاصمتهم خاتوشا، قضت عليهم غزوات شعوب البحر نحو سنة ١٢٠٠ ق.م، عندما دمرت إمبراطوريتهم.

(٥٢) هاني الحمداني، الحياة الاجتماعية في المملكة الحثية، أطروحة معدة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة الموصل ٢٠١٢م، ص١٨٢.

تماما في غضون ستة أو سبعة أيام»[٥٣]. وفي رسالة ثانية موجهة من الطبيب (أوراد–نانايا) إلى الملك أسرحدون أيضا، أثناء علاج ولي العهد، يتحدث فيها الطبيب عن الدواء الذي وصفه للمريض، بخصوص مرض ألم بأذُنه: «عسى أن يكون سيدي الملك مسرور، سأبعث لك علاجا بهيأة تبخيرة، مكون من زيت اللبان وزيت الجولق، والعلاج الذي سأبعثه أولا يُقطر في الأذن، وبعد أن يقطر يبخر بها، كما بَخرتُ سابقًا، وليكرر مرة ثانية بقية الزيت النباتي، وينقط في قطعة من الصوف الأحمر توضع في الأذن، بعدها سيصبح المريض جيدا، وسيبدأ بالتحسن»[٥٤]. وأخيرا تشير بعض النصوص القانونية من الفترة الآشورية إلى وجود أطباء ملحقين **بالمحاكم** أو معتمدين لديها، يقومون بتحديد مدى الأضرار الجسدية التي تنشأ عنها الدعاوى القضائية التي ترفع لتلك المحاكم، ويبدون رأيهم الطبي بشأنها للقضاة الذين يبتون بأمرها، ويمكن اعتبار ذلك البدايات الأولى للطب العدلي في التاريخ[٥٥].

الحادي عشر: الجراحة:

لقد أكد الأطباء في زمن السومريين على ضرورة استنفاذ كامل إمكانيات العلاج بالأدوية قبل اللجوء إلى الجراحة[٥٦]، ومن بين مئات الألواح الطينية المتعلقة بالعلوم هناك كسرتين فقط تتعلقان بالجراحة، الأولى ربما تخص إزالة الماء الأزرق من العين، والثانية ربما تتعلق بإزالة الجرح الملتهب من أحد العظام، «إذا كان المرض قد وصل إلى داخل العظم فعليك أن تكشطه وتزيله»[٥٧]، كما أن هناك تعليمات واضحة بكيفية الاهتمام بالجرح بعد أي عمل جراحي. ويرى بعض المختصين أن الحلاقين قاموا ببعض العمليات الجراحية البسيطة بما في ذلك الفصد وقلع السن وشق خراج للطبقات الفقيرة، بينما أختص الآسو في معالجة الطبقات الرفيعة[٥٨]. كما أن بعض المواد الواردة في قانون حمورابي تدل على أن المداخلات الجراحية كانت كثيرة الحدوث (المواد ٢١٥– ٢٢٥). ويبدو أن الجراحة عن الآشوريين تقدمت عما هي عليه عند البابليين، بحكم أنهم كانوا إمبراطورية عسكرية دائمة الحروب، والجنود المصابون بحاجة إلى أطباء جراحين لمداواتهم، أكثر من حاجتهم للعلاج بواسطة الدواء[٥٩].

(٥٣) عبد الرحمن يونس عبد الرحمن، اللَّبائخ وطبيعة استخدامها في الطب الآشوري، مجلة دراسات موصلية، العدد ٤١، تموز ٢٠١٣م، ص٣٦.

(٥٤) مؤيد الدليمي، دارسة لأهم النباتات والأعشاب الطبية في العراق القديم في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة معدة لنيل درجة الدكتوراه في الآثار القديمة، جامعة الموصل ٢٠٠٦م، ص٥٦–٥٨.

(٥٥) حامد خيري الحيدر، نظرة على الطب في العراق القديم، ص٣.

(٥٦) فرج حبة، الكيمياء في العراق القديم، مجلة سومر، الصادرة عن مديرة الآثار العامة في الجمهورية العراقية، ج١،٢، مج ٢٥، بغداد ١٩٦٩م، ١٠٩.

(٥٧) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ٣٣٥.

(58) Supady, Jerzy., Op. Cit., 2019, p.15

(٥٩) فوزي رشيد، العلوم الإنسانية والطبيعة، بحث ضمن: موسوعة الموصل الحضارية، مج ١، دار الكب للطباعة والنشر، جامعة الموصل ١٩٩٢م، ص٣٨٦.

أما **الأمراض الجراحية** التي كان يعالجها الأطباء، فهي متنوعة وتشمل الجروح، والخدوش، والكسور، واستئصال الأورام الخارجية والخراجات Kabbartu، بالإضافة لمعالجة تمزق الأوتار ووشم العبيد(٦٠). ولا شك أننا في أي دراسة لتاريخ العلوم الطبية معنيون بدراسة **الأدوات الجراحية:** (المبضع، والملقط، والمشرط، والزراقة؛ التي يدخلون بها الدواء إلى الأذن، والآلة التي تشبه مثقب القحف أو المنقب Trephin)، وقد ظهر في مدينة لغش في جنوب العراق جمجمة مثقوبة لأغراض جراحية. كما عثر علماء الآثار على أدوات طبية جراحية متنوعة مصنوعة من معادن مختلفة مثل البرونز والنحاس والحديد، كان بعض هذه الأدوات في قبور أصحابها؛ كونها ممتلكات شخصية تخصهم، وبالتالي فإن هذه الأدوات عرفتنا بمهنة المتوفى، وهناك شواهد متنوعة من بابل وآشور وخاتوشا وماري وإبلا. وبالعموم هناك حتى الآن ست عشرة أداة موثقة ومدروسة ومنشورة ومعترف بها كأدوات جراحة طبية، أفضلها أتى من بابل. ويصف النص المسماري رقم (TM.75.G.2462) من محفوظات مملكة **إبلا**، المؤرخ بالنصف الثاني من الألف الثالث ق.م: شراء (٢٣) أداة طبية لطبيب–آسو Asû. وكانت كمية البرونز المعدة في صناعتها نحو (٤٨٠)غ. وكان البرونز المستخدم في صناعتها بنسبة جيدة، وقد شملت أدوات هذا **الطبيب السوري:** مناشر، مطارق، مدقة madakku، أنصال، إبر، كماشة، وكذلك شفرات حلاقة. وهذا يعني بصورة قطعية أن الطبيب– الآسو، سواء في سوريا أم العراق جمع في مهنته بين تحضير الأعشاب والقيام بالعمليات الجراحية(٦١).

الثاني عشر: الوصفة الطبية:

إن أقدم نص صيدلاني معروف في التاريخ: ظهر من مملكة إبلا السورية، عثر عليه في القصر الملكي أو القصر ج (Palace G)، يؤرخ بنحو ٢٣٥٠ ق.م، ويحمل الرقم: (TM.75.G.1623)(٦٢)، مُعد لتحضير الدواء من ثلاث نبتات طبية، مُعد لمعالجة ثلاث أمراض هي اليرقان والمرارة والتقرحات. كما عُثر على لوحين طبيين سومريين ويعود تاريخهما إلى فترة سلالة أور الثالثة (٢١١١ – ٢٠٠٣ ق.م)، تم تصنيفهما على أنها وصفتان طبيتان؛ **النص الأول** عبارة عن كسرة صغيرة تحتوي على وصفة طبية واحدة فقط، وبين مكوناتها الطبية المتنوعة: (الزيت، ومسحوق خشب التنوب، ومغلي الشعير، والماء)، ويظهر فيها الأساليب المختلفة في تطبيق الدواء (أسحق، أفرك، أدهن، أغسل)، ورجح أنها وصفة طبيعة لمعالجة مرض تناسلي؛ «هذه الوصفة لشخص مصاب بمرض في التُن tun والنو nu»؛ وقد رجح علماء الآثار أن التُن والنو عضوان تناسليان(٦٣). في حين أن **النص الثاني** عبارة عن لوح كامل دوِّن عليه نحو ١٥ وصفه طبية، عثر عليه في نيبّور، ويظهر أن الطبيب السومري لا يختلف عن نظيره المعاصر؛ فقد ذهب إلى مصادر نباتية وحيوانية

(٦٠) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٣٨.

(61) Laere Emmy, V., Op. Cit., 2017 - 2018, pp.25- 27

(62) Vacca, A., & Peyronel, L., & Wachter-Sarkady, C., An Affair of Herbal Medicine? The 'Special' Kitchen in the Royal Palace of Ebla., A publication of friends of ASOR, p.10. **And**; Fronzaroli, P., Op. Cit., 1998, p235.

(63) Kramer, S. N., Op. Cit., 1970, pp.98, 99

وأخرى كيميائية (مشتقة من المعادن) من أجل طبه، حيث استخدم الطبيب السومري (كاتب هذا اللوح) كلوريد الصوديوم (الملح) وقار النهر والزيت، ومن المواد الحيوانية استخدم الصوف، والحليب، وصدفة السلحفاة، وثوب ثعبان الماء. لكن معظم مستحضراته الطبية جاءت من عالم النباتات مثل الزعتر، والخردل، والخوخ، الأجاص، والتين، ونبتة المن، التنوب، وعلى منتجاتها مثل الجعة والخمر وزيت الخضار(٦٤). وهكذا يظهر من هذه الوثيقة أن السومريين كانوا على معرفة بالأدوية النباتية والمعدنية وأنهم استخدموها بأشكال مختلفة خارجيا كالكمادات والدعك بالزيت أو داخليا كالجرع والحقن(٦٥).

والأهم من ذلك أن هذه الوثيقة خالية من أي تعويذات، حيث لا يوجد ذكر للآلهة أو للشيطان، وبالتالي فإن الطبيب الذي كتب هذه الوثيقة يبدوا أنه مارس مهنته بصورة علمية بعيدا عن الشعوذة. ومن الصعوبة بمكان التأكد من خلال هذه الوثيقة إن كان الطبيب السومري قد قام بالتجارب اللازمة وتحقق من المعلومات المدونة. ومع ذلك يبدو من المنطقي الافتراض أن الأدوية التي كان يصفها الطبيب ذات قيمة علاجية عالية وجديرة بالاعتبار، طالما أن سمعته المهنية كانت على المحك. ومن المؤسف أن هذا النص لا يزودنا بأي فكرة واضحة عن الأمراض والعلل التي من أجلها حضرت هذه الوصفات(٦٦).

طبعا هناك المئات من النصوص الخاصة بوصفات طبية جاءنا معظمها من مكتبة آشور بانيبال ومن مدن الشرق القديم الأخرى(٦٧). وجميعها وصفات طبية ممتازة نذكر منها:

- (المريض المصاب بالسعال، علاجه أن يشرب عرق السوس المسحوق والممزوج مع الزيت والخمر).
- (المريض المصاب بألم الأسنان، علاجه أن وضع على الضرس المصاب ورد عين الشمس).
- (إذا كانت معدة إنسان مضطربة ولا تتقبل أي طعاما أو شراب، تأخذ بذور الطرفاء وتمزج مع العسل واللبن الخاثر ليأكلها المريض فيشفى) (٦٨).
- (الصبر، دواء لمعالجة المرارة، يفتت ويدق ويسخن، ويوضع فوق اللسان ويشرب قبل الفطور مع الزيت المصفى) (٦٩).

(64) Ibid, pp.96,97

(٦٥) فاروق الراوي، المرجع السابق، ص٣٢٩.

(66) Kramer, Op. Cit., 1970, p.97

(٦٧) فاروق الراوي، المرجع السابق، ص٣٢٩.

(٦٨) حامد خيري الحيدر، المرجع السابق، ص٤.

(٦٩) فاروق الراوي، المرجع السابق، ص٣٣٥،٣٣٤.

لقد استخدم القدماء **البيرة**، كواسطة أو مذيب للأدوية النباتية وهذا يدل على معرفة جيدة بطبيعة المركبات العضوية، وعدم ذوبانها إلا في مذيبات عضوية، كما استخدموا البيرة كذلك في تعقيم الجروح وتخفيض درجة حرارة المريض. بينما تم استخدام **ملح** الطعام بتناوله داخليا في حالة الإصابة بالإجهاد نتيجة التعرق الكبير، وتجدر الإشارة هنا إلى دور ملح الطعام الكبير بالنسبة للوظائف الفيزيولوجية للجسم والمحافظة على الضغط واستمرار النشاط لم يعرف إلا في العصر الحديث(٧٠).

عموما إن المدقق في الوصفات الطبية سيجد أنها اعتمدت على **المواد النباتية** كالجذور والبذور واللحاء والأوراق والفاكهة والأغصان، ومن أكثر المواد الطبية شيوعا كان الثوم وعرق السوس والزعتر ومئات أخرى من أنواع الأعشاب التي جاءتنا على شكل قوائم معجمية أو خلال الوصفات الطبية. كما أنهم استخدموا **المواد الحيوانية** بما فيها ألبانها ولحومها وحتى بقاياها (جلد أفعى الماء). واستخدموا الطيور على مختلف أنواعها كالبوم والنعام والصقر والغراب والدجاج. واستخدمت الأصداف (صدفة السلحفاة) في صناعة الأدوية. هذا بالإضافة إلى **مواد أخرى** كالأملاح والمعادن، ولعل معرفتهم بالكيمياء هي التي مكنتهم من استخلاص الأدوية منها(٧١)، فحتى تحصل على الدواء لا بد أن تمر بعمليات كيمائية معقدة، ومعرفة الكثير من خصائص تلك المواد(٧٢).

إنّما يؤكد اعتماد الأطباء في الشرق العربي القديم على استعمال العقاقير الرسالة التي أرسلها يسمخ أدو إلى أخيه وفيها يقول: «إن الأعشاب التي عالجني بها طبيبك كانت رائعة، وإذا كانت بعض الجروح قد تقيحت فإن هذه النباتات تصلحها، ولهذا فإنني مرسل لك الطبيب توكولتي ليتعلم سريعا خصائص هذه النباتات، ومن ثم تعيده لي»(٧٣). وهناك وثائق أخرى تدل على استعمالات مختلفة للأعشاب. وبهدف التداوي استقدمت أنواع مختلفة من النباتات بما في ذلك النادرة منها، كما جلبت أنواع أخرى ليس من الدول المجاورة وحسب بل ومن مسافات بعيدة جدا، أما الأنواع المحلية فقد زرعت في حدائق خاصة(٧٤).

لقد كانت أدوية الشرق العربي القديم كانت تستعمل بلعا أو تنفخ في الأنف أو تعطى بشكل تبخيري أو تدخين. كما كان يستعمل بعضها بشكل تحاميل أو رحصات ولمعالجة القروح كانوا يستعملون الدهون (مراهم) والتي كانت تفيد أيضا في منع التصاق الضمادات، وكانت هذه الأدوية تستعمل وفق طقوس خاصة، وفي ساعات معينة من اليوم، وحينما تكون بعض الكواكب أو النجوم في

(٧٠) فرج حبة، المرجع السابق، ص١٠٨.
(٧١) فاروق الراوي، المرجع السابق، ص٣٢٩.
(٧٢) فرج حبة، المرجع السابق، ص١٠٨.
(٧٣) محمد زهير البابا، المرجع السابق، ص٤١.
(٧٤) ك. ماتفييف و أ.سازونوف، المرجع السابق، ص١٣٦

أوضاع معينة[٧٥]، ويظهر من المصادر بأن الأدوية المستعملة لم تكن فعالة جدا في العلاج لكنها على أية حال تدل على إدراك جيد للدور الذي يمكن أن تلعبه النباتات الطبية والأملاح المعدنية في العلاج[٧٦].

الرابع عشر: أساليب وقائية:

كان من بين أهم أسباب الوقاية الطبية الابتعاد عن الدنس والنجاسة، سواء في البدن أم في الثوب أم في القلب، حتى أن الدنس أدرج في قائمة الأخطاء الأخلاقية التي تغضب الآلهة، وكان غضبها –كالعادة– يتسبب بالمرض، فوضع القدم في الماء الآسن، لمس رجل أو امرأة من دون غسل اليد، لمس جسد وسخ، كل هذه الأمور كان منهياً عنها كأسباب وقائية ضد الأوبئة[٧٧]. ومن هذا المنطلق قدس سكان الرافدين الماء، باعتباره مادة الطهارة، وأن هذه القدسية لها علاقة بطقوس السكب والتطهير وارتباطها بالإله أيا Ea (إله الماء) الأب الأول للأطباء الشرق القديم، حتى أن قنوات المياه كانت حرام؛ لا يجوز تلويثها، ويُعد التبول فيها خطيئة لا تغتفر[٧٨]. وكان من أسباب الوقاية نظافة الجسد، فكان على المرء الاستحمام بشكل دوري، وأن يقص شعره وأظافره عند الحلاق، وكان عليه أن يجمع الفضلات في أوعيه خاصة، ثم يرميها في أراضي الأعداء، كما كان يرمي موس الحلاقة في الجبال، بدوافع سحرية خاصة[٧٩].

لقد عرف سكان الشرق القديم **العدوى**، كانت أكثر الأمراض عدوة هي الأمراض الوبائية؛ كالأمراض الجلدية، والطاعون، والسل أكثر الأمراض التي أصيب بها الإنسان عبر العصور، لذلك كان أطباء الشرق القديم يطالبون بعدم الاختلاط بالشخص المريض، وكان يتوجب على الذين يخالطون شخصا مريضا الاغتسال بعدها، وكانت أكثر الأمراض المعدية انتشارا في الشرق القديم هي الحميات والأمراض الجلدية، وقد تمت مواجهتها بالعزل[٨٠]، إذ تم إعفاء العمال المرضى من العمل والخدمة، وألتزم الجميع بالابتعاد عنهم، وقد أفاد هذا العزل في الحد من انتشار أمراضهم نوعا ما[٨١].

لقد بينت لنا نصوص مملكة ماري أنه تم فيها **عزل المرضى المصابين بأمراض معدية**، وإننا نمتلك ثلاث رسائل منها تصف بعض الأمراض التي هددت ساكني جناح نساء، والتدابير الوقائية التي اتخذت من الأمراض المعدية، وقد تعرف المختصون على أحد هذه الأمراض ويدعى مرض سيمّوم Simmum (طفح جلدي)، وبسببه أصدر الملك أوامر صارمة بإبعاد النساء المصابات بهذا المرض،

(٧٥) محمد زهير البابا، المرجع السابق، ص٣٨.

(٧٦) فرج حبة، المرجع السابق، ص١٠٩.

(٧٧) جان شار سورينا، تاريخ الطب، ص٢٤

(78) Molleson, Th., Op. Cit., 1994. pp.70-75.

(٧٩) رضا جواد الهاشمي، الحلاقون في العراق القديم، دورهم ومكانتهم، مجلة سومر، العدد ٥١، ٢٠٠١–٢٠٠٢م، ص١٩٧.

(80) Supady, Jerzy., Op. Cit., 2019, p.14

(٨١) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٤٣.

وأمر بعدم مخالطتهن، إذ أرسل الملك زمري ليم إلى زوجته شيبتو Šibtu الرسالة التالية: «إلى شيبتو هكذا يقول سيدك لقد بلغني أن السيدة نانوم قد أصيبت بالمرض، وأن لها اتصالات كثيرة مع رجال القصر، كما أنها تقابل في مقرها الخاص العديد من النساء، والآن عليك أن تعطي أوامر مشددة تقضي ألا يشرب إنسان من الكأس الذي تشرب منه، وألا يجلس إنسان على الكرسي الذي تجلس عليه، وألا ينام إنسان على السرير حيث تنام. إن هذا المرض مُعد». وبالفعل استجابات الملكة شيبتو لأوامر الملك ونفذتها على الفور: «الآن اسكنتها في البناية الجديدة، لا أحد يمكنه أن يقترب من طعامها وطاولتها، أو من مخدعها أو كرسيها». وهكذا يظهر أن ما قامت به شيبتو هو شكل من أشكال الحجر الصحي؛ وهو يعني إيجاد مكان معزول لوضع المريضة فيه. كما يظهر من رسالة أخرى أن شيبتو كلفت من يقوم بعملية التعقيم، وتنظيف الأماكن المصابة(٨٢).

ومن الجدير ذكره أن الأطباء اهتموا **بطعام** المريض وحميته وأشاروا عليه بالابتعاد عن بعض المأكولات ونورد النص التالي: «على الذين عندهم مرض في أعينهم عدم أكل الكراث karašu أو الكزبرة kisibirru، وعلى الذين يشكون آلما في آذانهم تناول البقلاء» (٨٣)، وقد وصف الأطباء لمرضاهم المحتاجين للحمية: التفاح، والأجاص، والبصل، والثوم، والشمندر، والجزر، والحنطة، وأنواع من الشراب والعصير(٨٤). **وأخيرا** لكن رغم كل الأساليب الوقائية والعلاجية إلا أن الأمراض كانت منتشرة في بلاد الرافدين وسوريا القديمة، ولم يكن أكثر المرضى يحصلون على الشفاء، حتى أن الكبار والأطفال والصغار كانوا يموتون بأعداد كبيرة، إذ عثر علماء الآثار في تل قناص الواقع على ضفة نهر الفرات على كمية كبيرة من الهياكل العظمية لأطفال دفنوا في ذلك الموضع(٨٥).

الخامس عشر: تبادل الخبرات الطبية في الشرق القديم:

لقد أرسل العديد من الملوك الرسائل لبعضهم، طلبا لتبادل الخبرات الطبية فيما بينهم؛ للاستفادة منها في بلادهم، ولمعالجة حاشيتهم الملكية. ومن هذه الرسائل رسالة مرسلة من مملكة ماري إلى آشور، يرقى زمنها إلى حدود القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أكدت تلك الرسائل على أن الأطباء العراقيين القدماء كانوا ذوي مكانة عظيمة، وأن مملكة ماري كانت تطمع بخبراتهم المهنية(٨٦). كما أن هناك نص من ماري يبين فيه طبيب القصر للملك أن عليه يستخدم إحدى الوصفتين، إما الوصفة التي تقدم بها الفرق الطبي الخاص بالقصر الملكي، أو الفريق الطبي لمدينة أخرى تمت الاستعانة بخبرات أطبائها، ويؤكد الطبيب للملك أنه لا يجوز أن يستخدم الوصفتين

(٨٢) محمد عبد القادر الرفاعي، المرأة في ماري، ص٨٠-٨٢.
(٨٣) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٣٠.
(٨٤) ك. ماتفييف و أ.سازونوف، حضارة ما بين النهرين، ص١٣٧
(٨٥) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٤٠.
(٨٦) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٣٦.

معا، حتى لا يترتب على ذلك عواقب وخيمة[٨٧]. عموما لقد كان بمقدور الطبيب أن يعمل في غير بلاده، فقد اشتهر العراقيون كأطباء مهرة في الشرق القديم، حتى أن مشاهير أطبائهم كانوا يعالجون المرضى في البلاد الأجنبية[٨٨].

السادس عشر: بعض الفقرات المتعلقة بمزاولة الطب في شريعة حمورابي:

حمورابي هو ملك بابل السادس (١٧٩٣– ١٧٥٠ق.م)، وتعد شريعته من أعظم الوثائق التي أمدتنا بمعلومات طبية خاصة عن قانونين الجراحة عند سكان الشرق القديم. إن هذا التشريع يضم تسع فقرات قصيرة تتعلق بأجور الجراحين، وبالعقوبات التي تفرض عليهم في حال وقوعهم في الخطاء، وهي المواد من ٢١٥ حتى ٢٢٣، وتعد أقدم القوانين الطبية في الوجود، وتبين مدى المكانة المرموقة التي يحتلها الطبيب بصورة، وفي الوقت نفسه ترينا مدى صرامة العقوبات التي قد ينالها الجراح المهمل، ومنها:

- المادة ٢١٥: إذا عالج الطبيب رجلا مصابا بجرح خطير، بواسطة مشرط معدني، وشفي ذلك الرجل، أو إذا شق الطبيب خراجا في عين مريض وشفاه فإنه يتقاضى عشرة شاقل من الفضة.
- المادة ٢١٦: وإذا كان من الموالي فإن الطبيب يتقاضى خمس شاقلات من الفضة.
- المادة ٢١٧: وإذا كان عبد رجل فعلى الرجل أن يدفع شاقلين فضة.
- المادة ٢١٨: إذا عالج الطبيب رجلا حرا مصابا بجرح خطير بواسطة مشرط معدني وأدى ذلك إلى وفاة ذلك الرجل أو إذا شق الطبيب خراجا في عين مريض، ونتج عن ذلك انطفاء عين المريض، تقطع يد الطبيب.
- المادة ٢١٩: إذا أجرى الطبيب عملية لعبد بسكين، وتسبب بوفاة العبد فعلى الطبيب أن يعوض سيد العبد بعبد آخر.
- المادة ٢٢٠: وإذا فتح الطبيب محجر عين عبد بسكين وتسبب بإطفاء عينه، عليه أن يدفع نصف ثمن العبد فضة.
- المادة ٢٢١: إذا شفى الطبيب مريضا من عامة الشعب مصابا بكسر أو قرحة يتقاضى خمسة شاقل من الفضة.
- المادة ٢٢٢: أما إذا كان المريض عبدا فيتقاضى الطبيب ثلاثة شاقل فقط من سيده.
- المادة ٢٢٣: وحينما يكون المريض ولدا يتقاضى الطبيب شاقلين فقط[٨٩].

ومن الملفت للانتباه أن المادتين ٢٢٤ و ٢٢٥ من قانون حمورابي تتعلق بالطب البيطري:

(٨٧) محمد عبد القادر الرفاعي، المرأة في ماري، ص٨٣، ٨٤.

(٨٨) نور الدين حاطوم، وآخرون، موجز تاريخ الحضارة، ص٢٠٦.

(٨٩) فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات، بغداد ١٩٧٩م المواد القانونية من ٢١٥–٢٢٣.

- المادة ٢٢٤: إذا عالج الطبيب ثورا أو حمارا من جرح خطر، يدفع مالك الثور أو الحمار إلى الطبيب سدس شاقل من الفضة.
- المادة ٢٢٥: إذا أجرى عملية كبيرة على ثور أو حمار وتسبب عن ذلك الموت، فإنه يعوض مالك الثور أو الحمار بمقدار ربع ثمنه[٩٠].

وتجدر الإشارة إلى أن التشريع في بلاد الرافدين لم يكن يمس الطبيب الذي يعالج الأمراض الداخلية، حين ارتكابه خطأ يؤذي المريض أو يؤدي بحياته، وهذا أمر طبيعي لأن الطبيب الجراح يعالج آفة صحية واضحة وهو صاحب صنعة، أما طبيب الداخلية فإنه يعالج مرض مجهول السبب، وبالتالي لا عتب ولا ذنب عليه. ولكي نقدر الأجر الذي كان يتقاضاه الطبيب في الشرق القديم أو العقوبة التي كانت تفرض عليه عند حصول الخطأ في المعالجة يكفي أن نذكر أن أجرة العامل في اليوم الواحد تعادل ٥/١ شاقل من الفضة، وأجرة المنزل من الحجم المتوسط هو خمسة شاقل من الفضة في السنة. مع الإشارة إلى أن الشاقل يعادل ٨,٤ غ[٩١].

(٩٠) فاروق الراوي وآخرون، حضارة العراق، ص٣٣٦.

(٩١) محمد زهير البابا، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ص٤٢، ٤٣.

المحاضرة الخامسة

القراءة والكتابة في الشرق القديم

لقد **تم ابتكار الكتابة في بلاد سومر** في جنوب بلاد الرافدين **في مدينة أوروك تحديدا**، وفي مصر الفرعونية، حيث ظهرت الكتابة المسمارية عند السومريين، وظهرت الكتابة الهيروغليفية عند قدماء المصريين في وقت واحد تقريباً، في نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد **نحو سنة ٣٢٠٠ ق.م**، وعد هذا التاريخ حدا فاصلا ما بين العصور التاريخية وعصور ما قبل التاريخ Prehistory وتعد **اللغة السومرية لغة أحادية المقطع** (لاصقة لا تعرف الاشتقاق ولا الإعراب)؛ وبالتالي هناك كلمات كثيرة متشابهة في النطق لكنها تختلف وتتميز في التلحين الكلامي. وقد **قدر السومريون أهمية الكتابة حتى أنهم اعتبروها «هبة الآلهة»**، وكان **الإله نابو** Nabu إلهاً لجميع العلوم في بلاد الرافدين بما فيها الحكمة والكتابة والكتاب. إن مطالعة النصوص المسمارية تبين لنا أن جميع ملوك الشرق القديم نسبوا معرفتهم في الكتابة إلى الآلهة، فهذا ما دفع **الملك شولجي** (٢٠٩٣– ٢٠٤٦ ق.م) الذي كان يتقن الكتابة والموسيقى والمتبحر في الأدب؛ لأن يصرخ بأعلى صوته قائلا: «أنا الكاتب الحكيم للربة نيسابا» وافتخر أنه بنى مدرستين؛ الأولى في مدينة أور والثانية في نفر. أما الملك **لبيت عشتار** (خامس ملوك اسين) فقد قال في إحدى الترنيمات الموجهة للربة نيسابا: «الربة نيسابا هي الربة التي يشع منها الفرح، هي الربة الكاتبة الموثوقة، سيدة كل المعارف، توجه أصابعك فوق الطين، هي التي جعلت كتاباتك فوق الطين جميلة، وهي التي جعلت يدك لامعة مثل الذهب».

لم يكن **آشور بانيبال** (٦٦٨– ٦٢٧ ق.م) ملكاً وقائداً عسكرياً مرهوب الجانب فحسب، بل كان إنساناً مثقفاً محباً للعلم والمعرفة؛ استطاع تعلم الكتابة المسمارية أيضا، وبرع في حل مسائل الرياضيات الصعبة، لكن أهم أعماله على الإطلاق كان بناء مكتبته الشهيرة في عاصمته نينوى. ومن أجل إنشاء هذه المكتبة جمع آشور بانيبال ما وجده في قصور أجداده من نصوص مسمارية، كما استنفر جميع الكتبة في مملكته وأرسلهم إلى كافة الأقاليم والمقاطعات والمدن في بلاد الرافدين؛ ليبحثوا له عن كل ما هو مفيد من الألواح الطينية التي تحتوي مختلف صنوف العلم والمعرفة، من أجل نسخ ما فيها من معلومات وجلبها إلى مكتبته، حتى ضمت هذه المكتبة آلاف الألواح الطينية؛ بموضوعات مختلفة وكانت مرتبة ومفهرسة بطريقة جيدة.

وفي إحدى نصوصه التي دونها بيده يقول: «إنني سأتفوق في مملكة الكلمة المكتوبة، فالإله مردوك الحكيم قدم لي من بين الآلهة فهماً واسعاً وذكاءً عميقاً، الإله نابو مؤلف العلم أعطاني هدية تعلم الحكمة، يمكنني أن أناقش العلماء في اجتماعهم، وأنا قادر على وضع أسس السلطة، لأن الكبد هو انعكاس للنعيم مع الكهنة الخبراء، كما يمكنني أن أحل القسمة وعمليات الضرب المستحيلة، لقد

تفحصت كتابات مدونة على الصخور من عهد ما قبل الطوفان رغم أن معناها كان غامضاً» وهكذا يقدم آشور بانيبال نفسه لنا كعالم وحكيم وخبير في القراءة والكتابة والحساب واللغات القديمة، طبعا كل ذلك بفضل الآلهة عليه.

ألواح طينية من مكتبة آشور بانيبال

لقد كانت الكتابة في بداياتها صورا محسوسة تطورت فيما بعد إلى الخط المسماري، وظهرت أقدم الألواح الطينية التي حملت **علامات صورية مجردة في مدينة أوروك** السوية الرابعة (أ)، وأرخت بأواخر الألف الرابع قبل الميلاد، وتصنف من قبل المختصين **بالمرحلة التصويرية** Plctographic، ويقصد بالكتابة التصويرية التعبير عن الكلمة بصورة واحدة تماثلها فرأس الثور يعني ثورا، والشمس تعني شمسا، واليد تعني يدا، وقد تحاشى العراقيون القدماء رسم الصور المعقدة في الكتابة المسمارية التصويرية؛ كرسم الإنسان في وضعيات مختلفة كما هو الحال في الكتابة الهيروغليفية التصويرية، والاكتفاء في كتابة أسماء الحيوانات برسم رأسها فقط. في الواقع لم يكن ابتكار الكتابة من أجل تسجيل بطولات الملوك وحربهم، بل كان لغابات اقتصادية ومعاشية بحتة الهدف منها تسجيل كمية المحصول والمستهلك منه والحصص الموزعة، والثروة المتراكمة، وحساب الهبات والأضاحي، والحاجات المباعة والمشتراة.

إذا لقد أبدع السومريون بالتدريج في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد نحو ألفي علامة مسمارية، وكانت في البدء رسوما حقيقية تمثل الأشياء بذاتها أو عناصرها المميزة، إن أقدم الألواح الطينية التي دونت عليها **علامات مسمارية كتابية** فقد ظهرت في مدينة أوروك (الطبقة الثالثة والثانية) وجمدة نصر، وأور، وشوروبارك، وتؤرخ (٣٢٠٠– ٢٦٠٠ ق.م) وكانت هذه النصوص باللغة السومرية، وتضنت معلومات اقتصادية بسيطة، وتندرج كتابات هذه المرحلة تحت **الطور الرمزي** Ideographic فلم تعد صورة المحراث تعبر عن المحراث uru فقط، بل صارت ترمز إلى فعل الحراثة apin وإلى من يقوم بفعل الحراثة engar، كما مثلت بعض الأفكار المجردة من خلال رسوم رمزية مركبة، فصار رسم الفم بجانب الماء علامة على الشرب، صورة المرأة إلى جانب العلامة التي تدل على البلاد الأجنبية تعني «أَمَة»، ولم تعد إشارة الشمس المشرقة تعبر عن الشمس فقط بل صارت تعبر عن النور والنهار والسطوع كذلك.

لقد تطورت الكتابة في اتجاهين الاتجاه الأول التصويري الرمزي والاتجاه الثاني المقطعي الهجائي، وهكذا تم إنقاص عدد العلامات المسمارية من خلال توحيد العلامات التي تعبر عن كلمات متقاربة مثل محراث ويفلح، فصورة المحراث مثلا تعبر عن المحراث نفسه

وعن فعل الفلاحة، أي تم إلغاء العلامات المختلفة التي تعني أشياء متماثلة، والتميز بينها لم يكن أمرا صعبا، حيث تم استخدام علامات دالة توضع قبل الكلمات السومرية، فمثلا استخدمت الكلمة السومرية giš (خشب) للدلالة على كل شيء مصنوع من الخشب، فإذا وضعت أمام العلامة المسمارية الدالة على (الفلاحة، الفلاح، المحراث) سيكون واضحا للقارئ أن المقصود هو المحراث دون غيره. مع مرحلة العصر السومري القديم (٢٥٠٠– ٢٣٥٠ ق.م) كان السومريون يستخدمون ما بين ٦٠٠– ٧٠٠ علامة مسمارية فقط، تطورت عنها **الكتابة الصوتية** Phonetic (الطور المقطعي الهجائي)؛ التي أطلق عليها مكتشفوها الأوروبيون اسم «الكتابة المسمارية» وسميت الكتابة الصوتية لأن الكتبة السومريون أخذوا يهتمون بأصوات العلامات المسمارية دون الالتفات لأشكلها التصويرية، وصارت كلماتهم تكتب بقيمها الصوتية، ولها نهايات قواعدية.

لقد رافق هذا التطور التقني تطور مماثل في الشكل، فإن **استعمال الطين كمادة للكتابة** أعطى الكتابة المسمارية أهم ميزاتها، فالتطور من الرسوم البدائية إلى مجموعة من الأوتار أو المسامير، يمكن أن يوضح الصعوبات التي واجهت رسم الأقواس على سطح اللوح الطيني، فبحكم أن القلم المصنوع من القصب (gi) 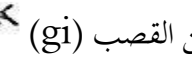 كان لا يسمح برسم الخطوط المنحنية المتألفة منها الصورة فقد اضطر الكاتب السومري إلى رسم الخطوط المنحنية على هيئة زاوية أو إشارتان مسماريتان متجاورتان. مما ساهم في نشوء نوعين من الكتابة؛ الكتابة المسمارية الناتجة عن ضغطات من قلم من القصب على لوح طيني، والنوع الثاني هو الكتابة الخطية على الجلود، وهي كتابة تشبه الكتابة التي نستخدمها اليوم، إلا أن نظام الكتابة المسمارية هو الذي ساد في مختلف أنحاء الشرق القديم، لقد حدث هذا الاختصار نحو سنة ٢٥٠٠ ق.م وبعد هذا التاريخ تعذر علينا معرفة الصورة التي تتألف منها العلامة المسمارية. لقد تضمنت الكتابات المسمارية نصوص ملكية واقتصادية تركز معظمها في مدينة لغش ونيبور وأور، وفي عصر الاحياء السومري (٢١١١– ٢٠٠٣ ق.م) عثر على مئات النصوص المسمارية باللغة السومرية بموضوعات مختلفة سواء ملكية أم قانونية، أم اقتصادية، أم أدبية الخ، من مختلف مدن سومر ولاسيما من لغش وأومّا وأور التي أمست عاصمة للإقليم، ومع بداية الألف الثاني قبل الميلاد كانت العلامات المسمارية قد تم اختصارها إلى ٥٠٠ علامة فقط.

الكتابة على الطين بواسطة قلم من قصب.

لقد دون السومريون كتاباتهم على ألواح طينية، باستخدام **قلم من القصب** رأسه مثلث الشكل، وهذه مواد متوفرة في بلادهم بكثرة وكلفتها رخيصة، حيث يوفر النهران العظيمان (دجلة والفرات) الطين والقطب بكثرة، لكن هذا لا يعني أن **تحضير الألواح** لم يتطلب جهدا، حيث يجب أن يحظى بالطين عناية خاصة وينظف من الشوائب، وكانت شواطئ الأنهار هي أفضل مكان من أجل الحصول على الطين النقي الخالي من الشوائب، وكانت الألواح الطينية تترك تحت أشعة الشمس لعدة ساعات حتى تجف، أو توضع في أفران لتكتسب الصلابة فتصبح رُقماً فخارية، مما ساعد في العثور على كميات كبيرة جداً من تلك اللواح أثناء التنقيبات الأثرية، وهي في حالة سليمة تماماً. إن **اللون الأساسي** للوح الطيني هو اللون الأحمر الناتج عن ارتفاع نسبة أكسيدات الحديد في الطين، لكن إدخال الألواح الطينية إلى الفرن لشيها (لتحميصها)؛ أدى بشكل عام تعديل لون اللوح الطيني إلى اللون الأسود. إن معظم **الألواح المسمارية لها شكل** مستطيل، ويمكن أن نعثر على بعض الألواح الطينية بشكل مربع لكن غالبيتها له شكل مستطيل، ولبعضها الآخر شكل مدور، وشاع أن الألواح الطينية المستديرة لتمارين المدرسية، بينما غلب الشكل البيضوي على الوثائق الإدارية.

لقد **كان للكتابة على الطين حسنات وسيئات** في الوقته نفسه، حيث كان على الكاتب التقيد بحجم اللوح، كما أن النصوص الكبيرة كانت تتطلب ألواح طينية كبيرة؛ لها حجم كبير ووزن ثقيل، وكان على الكاتب أن يقدر مسبقا المساحة التي يحتاجها النص الذي سيدونه، كما أن تعديل الكلمات أو تصليحها على اللوح الطيني بعد أن يجف؛ هو أمر مستحيل. وبعد أن ينتهي الكاتب من الكتابة على وجه اللوح يتابع الكتابة على وجهه الآخر، ولا يقلب اللوح مثل صفحة الكتاب إنما يقلبها مثل ما نقلب العملة، وأحيانا يستعمل الكاتب الهامش العلوي والسفلي في اللوح للكتابة، والحافة اليسرى أيضا، وأحيانا يترك هامشا جانبيا لطبعة الختم أو لاستعمالات أخرى، وتجدر الإشارة إلى أن الكاتب كان يضع اللوح على ذراع يده اليسرى ويمسك بقلم القصب بيده اليمنى، وينقش العلامات المسمارية من اليسار إلى اليمين على وجه اللوح، ومن اليمين إلى اليسار على الوجه الآخر، ويمكن تخطيط وجه اللوح الكبير، وتقسيمه إلى عدد من الأعمدة والخلايا.

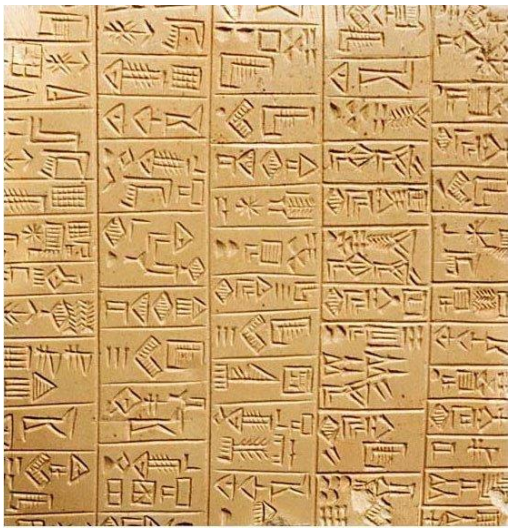

لوح طيني من مدينة كيش عليه نص باللغة السومرية مؤرخ بالقرن السادس والعشرين قبل الميلاد

لم يكن الطين مادة الكتابة الوحيدة في الشرق القديم، حيث كشفت تنقيبات تل النمرود (كلخو) في العراق عن **استعمال الخشب والعاج للكتابة** أيضا، كما **استعمل الجلد كمادة للكتابة** المسمارية في الألفية الأولى ق.م، واستخدم **الحبر للكتابة عليها،** كما قام سكان بلاد الرافدين بكتابة بعض العلامات المسمارية على **أجساد العبيد،** كنوع من أشكال الوشم بهدف تعقبهم إذا هربوا، وعرف سكان بلاد الرافدين الكتابة على **الحجر** مثل النصب التذكارية والمسلات وأحجار المساحة والتماثيل والأختام الأسطوانية. ونحن نعلم أن المعاهدة الشهيرة بين خاتوشلي الثالث Hattusili III ورعمسيس الثاني Ramses II، كتبت بالمسمارية على **لوح من فضة،** ومع ذلك هناك نسخة منها دونت على لوح طيني، كما أن هناك لوح برونزي أعاد بنود العاهدة الأخرى مع خاتوشا Hattusha. ويبدو أن الختيين Hittite في بلاد الأناضول استعملوا **ألواح خشبية مغطاة بالشمع للكتابة عليها،** وأغلب تلك الكتابات كانت كتابات مسمارية اقتصادية وإدارية، لكن الملفت للانتباه أن استعمال الشمع للكتابة كان مجهولا في بلاد الرافدين.

أما عن اللغة التي دونت بها النصوص المسمارية في الألف الثالث ق.م فهي **اللغة السومرية؛ لغة النخبة المثقفة،** لكن اللغة السومرية أخذت بالانحسار بعد سقوط سلالة أور الثالثة سنة ٢٠٠٣ ق.م، والتي تعتبر آخر سلالة سومرية في التاريخ، وسرعان ما **استطاعت اللغة الأكادية** بكتابتها المسمارية المقطعية منافستها، ثم التفوق عليها، وتعتبر هذه الخطوة الانقلابية؛ أي إدخال النظام المقطعي الأكادي على النظام السومري الرمزي، المرحلة الأساسية في سبيل الوصول إلى **التجريد الأبجدي** في العصور التاريخية اللاحقة، في القرن الرابع عشر ق.م في مدينة أوغاريت على الساحل السوري. لقد **امتازت اللغة الأكادية بمجموعة من الميزات** فأولا ساعدت مرونة اللغة الأكادية وغناها بالمفردات؛ الناطقين بها في عملية ابتكار المقطع الصوتي، وهي اللغة الأقدم التي ظهرت مدونة حتى اليوم من شقيقات اللغة العربية، وسمحت لهم تلك المرونة عدم الخلط بين الكلمات المتجانسة لفظا. ربما أن اللغة الأكادية كانت شائعة في بلاد الرافدين قبل ابتكار الكتابة المسمارية، حيث ظهرت العديد من الكلمات الأكادية في النصوص السومرية القديمة، ويبدو أن اللغة الأكادية أمست لغة شائعة الانتشار منذ عهد سلالة أور الثالثة، لكنها (أي اللغة الأكادية) استفادت من ظروف اتساع الإمبراطورية الأكادية (٢٣٣٤– ٢١٥٩ ق.م) وبفضل هذه الدولة الفتية أصبحت اللغة الأكادية اللغة الرسمية لبلاد الرافدين طوال عصور متتالية، ودونت بها معظم الإنجازات الفكرية والدينية والأدبية والاقتصادية في الشرق القديم.

لقد **استمرت السومرية حاضرة في اللغة الأكادية** إذ لم يلغ الأكاديون النظام الرمزي السومري السابق تماماً، بل اقتبسوه واستخدموه لكتابة كلمات لغتهم واضعين أمامها الترجمة السومرية، مكتفين بعدد قليل من العلامات المسمارية، وأخذ اللغويون بتأليف القواميس السومرية–الأكادية، ورغم أن اللغة الأكادية أمست اللغة المستخدمة في الحياة اليومية، واللغة المستخدمة في النصوص المسمارية منذ الربع الأخير للألف الثالث ق.م، إلا أننا نجدها مليئة بالمصطلحات السومرية، حيث حظيت اللغة السومرية باهتمام رجال الدين والأدب والعلوم حتى بعد زوال السومريين، واستمر الكتبة حتى عهد آشور بانيبال يتعلمون المصطلحات والمفردات السومرية، وما يقابلها بالأكادية لأكثر من ألف وخمسمئة سنة، حيث أنهم زودوا النصوص السومرية بتوضيحات وتعليقات لفظية أكادية؛ وهكذا ظلت اللغة السومرية حية في النصوص العلمية، ومقدسة في النصوص الدينية، بعد أن كانت قد اختفت كلغة رسمية

ولغة محكية منذ الثلث الأول من الألف الثاني ق.م، والباحثون اليوم على معرفة أكبر باللغة الأكادية من السومرية، رغم العديد من المعاني التي لا زالت غامضة بالنسبة لهم.

لقد اجتاح **الأموريون** (السوريون القدماء) مدن الهلال الخصيب في مطلع الألف الثاني ق.م، انطلاقا من البادية السورية، واستطاعوا توحيد سومر وأكاد في مملكة واحدة هي المملكة البابلية، وأسسوا لأنفسهم ممالك مهمة أخرى، كان أشهرها إسين ولارسا في العراق، وماري ويمحاض (حلب) في سوريا، لكن من الواضح أن لغة الكتابة السومرية–الأكادية المتطورة جعلت كتاب بلاد الرافدين يهملون اللغة الأمورية في الكتابة طوال الألف الثاني ق.م، وقد لعب التهكم الثقافي دورا في ذلك، حيث نظر للأمورية على أنها لغة بدائية أولية محكية من قبل البدو رعاة الأغنام، وبالتالي احتقرت من قبل السكان المتحضرين ومن الطبقة المثقفة في بلاد الرافدين. ورغم ذلك فقد شهد العصر البابلي القديم (٢٠٠٣– ١٥٩٥ ق.م) حركة علمية واسعة تمثلت في استنساخ مئات النصوص المسمارية وتأليف قواميس ثنائية اللغة بالغتين السومرية والبابلية، وترجم الإرث الثقافي الأدبي والعلمي من اللغة السومرية إلى اللغة البابلية، لقد كانت اللغة السومرية حقا للغة للنخبة المثقفة، ولم يضطر البابليون في كتباتهم إلى توحيد مقاطع اللغة الأكادية وإشاراتها بل راحوا يضيفون لكل إشارة الكثير من القيم الصوتية وأخرى رمزية، فغدا النظام بالغ التعقيد وعلى قارئ النص أن يكتشف من سياقه وخبرته أي قيمة صوتية أو رمزية يعنيها الكاتب المسماري. في الواقع لقد تطورت اللغة الأكادية حتى أمست لغة للمراسلات الدولية في الشرق القديم قاطبة في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، وهذا ما تشهد به نصوص تل العمارنة[١].

لقد تعقدت الأمور في الألف ق.م بعد ظهور أنظمة الكتابة الجديدة وابتكار الأبجدية الآرامية الخطية، وبذلك يكون الآراميون قد تجاوزا نهائيا الخط المسماري، وهذا ما مهد الطريق أمام اللغة الآرامية لأن تصبح اللغة الرسمية للتجارة والأدب في بلاد الرافدين والشرق القديم قاطبةً، إن استخدام الحبر في كتابة اللغة الآرامية على الجلود قد مهد الطريق لانقراض الكتابة المسمارية التقليدية نهائيا في سنة ٧٥م؛ تاريخ تدوين آخر نص مسماري. في البداية كان هناك ردة فعل عنيفة أمام انتشار الآرامية لغة للكتابة على حساب الأكادية، حتى أن الملك الآشوري شاروكين الثاني (٧٢١– ٧٠٥ ق.م) رفض أن يستلم البريد مدونا على الجلد باللغة الآرامية، مؤكدا لموظفيه على ضرورة استخدام اللغة الأكادية والكتابة المسمارية مدونة على ألواح طينية.

لم يكن **تعلم الكتابة المسمارية** أمرا هيناً؛ حيث كان ينبغي على التلميذ السومري أن يذهب كل يوم إلى المدرسة (بيت الألواح) حتى يتعلم الكتابة المسمارية على نحو صحيح ويعي المئات من رموزها وآلاف القراءات، كان عليه أن يقضي معظم شبابه في المدرسة السومرية الملحقة بالمعابد، التي كان يدرس فيها المعارف العلمية والأدبية الشائعة في عصره. وتألفت الألواح المدرسية أساساً من

---

١) أصطلح المؤرخون على تسمية العصر الذي يشمل حكم الفرعون منحوتب الثالث وعهد ولده وخليفته أخناتون في مصر بعصر العمارنة، وتغطي وثائق أرشيف العمارنة فترة ثلاثين سنة أو أقل من تاريخ الشرق القديم، حيث استخدمت اللغة الأكادية لغة رسمية للمراسلات الدولية. وتل العمارنة يحوي آثار «أخت آتن» عاصمة أخناتون، يقع على بعد نحو ٣٠٠ كم جنوبي القاهرة، على الضفة الشرقية لنهر النيل، نال اسمه من القبيلة المصرية التي توطنت على التل فصار يعرف باسمها. انظر: Moran, W, L., The Amarna Letters, Baltimore and London, 1992

تصنيفات مختصرة ونصوص أدبية وعلمية وقانونية مختلفة يتدرب الطالب على نسخها وحفظها، وكانت هذه النصوص قد وضعت من قبل المعلم، الذي كان يعمل دوما من أجل الربة إنانا Eanna (عشتار)، ولا شك أن هذه التصنيفات المختصرة كانت مرفقة بشروح شفهية أو محاضرات. ولقد كشفت التنقيبات الأثرية عن وجود قاعتين للدراسة في قصر ماري بين الجناح الرسمي والجناح الملكي، وقد تميزت هاتان المدرستان الملحقتان بالقصر بتجهيزات مميزة، مثل مصاطب صغيرة مرتبة مثل مقاعد الصف، ويبدو أن هاتان المدرستان كانتا مختصتان بتخريج كتَّاب للملك، فمن المنطقي أن يحوي قصر على آلاف الألواح الطينية؛ وأن يحوي عددا كبيرا من المختصين بعلم الرموز الصعب، ولا غرابة مطلقا في أن يخصص الملوك في القصر مكانا لأولئك الذين سيتولون القراءة والكتابة.

لقد هناك الكثير من **الدوافع لتعلم مهنة الكتابة** في الشرق القديم، حيث يعد الكاتب الذي يحفظ الإشارات المسمارية عالماً مقدسا، ويمكننا أن نلمس ذلك بشكل واضح مما ورد في النصوص المسمارية التي زودتنا بمادة غنية من الأقوال والأمثال التي تحث على احتراف هذه المهنة وترغب بها؛ ومن هذه الأقوال: «من يفلح في علم الكتابة سوف يسطع كالشمس»، «ليس من السهل تعلم الكتابة، لكن من تعلم الكتابة لا يقلق أبدا»، «كن مجدا في تعلم الكتابة فإنها توفر لك الغنى والرفاهية»، «الكتابة فن بهيج لا تشبع منه النفس»، وكانت مهنة الكاتب من أهم المهن في المعابد والقصور والمحاكم، وكان صاحبها يعفى من بعض الواجبات الشاقة التي كان يكلف بها غيره.

لقد كان **ملوك الشرق القديم مثقفون يجيدون القراءة والكتابة**، فهناك رسالة من زمري ليم Zimri-Lim (١٧٨٢-١٧٥٩ ق.م) ملك ماري إلى خادمه موكانشوم Mukannishum ربما تعطي انطباعا بأن زمري ليم كان يجيد القراءة والكتابة، وإن لم يكن مؤكدا ذلك. إذ يظهر من سجلات ماري[٢] أن هناك نصان قد ألفا؛ إحداهما من كاتب لم تذكره النصوص المسمارية، والثاني تم تأليفه من قبل ناب عشتار Nab-Eshtar، وكان على زمري ليم أن يختار إحداها كنص إهداء سيقدم للإله أدو Addu إله العواصف في حلب، والرسالة التي بين أيدينا يطلب فيها زمري ليم من موكانشوم أن يبعث له كلا النصين ليختار إحداهما. كما أن **الآلهة كانت تجيد القراءة والكتابة**، فالألواح الطينية التي دونت عليها ترانيم وأدعية كانت توضع أمام تماثيل هذه الآلهة، وفي مناسبات مختلفة قامت الآلهة بإرسال رسائل مكتوبة إلى الملوك، وإن كانت قد استخدمت وسائل لتفعل ذلك، وفي المقابل قامت الآلهة بكتابة رسائلها بنفسها على كبد الأضحية الحية، كأجوبة لأسئلة الكهنة التي طروحها عليها.

تجدر الإشارة إلى أن ملوك الشرق القديم كانوا يختارون المتعلمين ممن يجيدون القراءة والكتابة **للمهمات السياسية والدبلوماسية**، حيث تبدو شخصية المندوب عبد الملك Habdu-Malik من أهم الشخصيات التي تحظى بثقة الملك زمري ليم، لذلك أرسله في أكثر من بعثة دبلوماسية، حتى أنه احتل مرتبة وزير في بلاط ماري، وكانت المهمة الأساسية لعبد الملك هي مصالحة حمورابي البابلي وأتمروم، حيث كان حمورابي البابلي منزعجا من التوسع المستمر لقوات زمري ليم ومندوبيه، ويمكن تتبع طريق المهمات الدبلوماسية

[2]) Archives Royales de Mari XVIII 16 +.

لعبد الملك من خلال رسائله وترتيبها الزمني. كما يمكننا أن نستنتج أن **حكام الأقاليم والمدن التابعة كانوا يجيدون القراءة والكتابة** ففي رسالة مرسلة من آشور بيلو Assur belu حاكم مدينة ميتوران Me-Turan يظهر أن الرسالة التي بعثها للملك الآشوري شاروكين الثاني كتبها بنفسه، عندما كان في وادي ديالا دون كاتب يرافقه، ومن خلال تحليل هذه الرسالة يتبين أن آشور بيلو قد تمكن من تعلم ١١٢ رمز مسماري (٧٩ رمز مقطعي و ٣٣ رمز عادي) وهذا يؤكد أن المعرفة بالكتابة المسمارية في الإمبراطورية الآشورية الحديثة لم تكن أقل تطورا من الدولة الآشورية القديمة أو من المملكة البابلية في مطلع الألف الثاني ق.م، على عكس ما يعتقد به المختصون بالفترة الآشورية الحديثة.

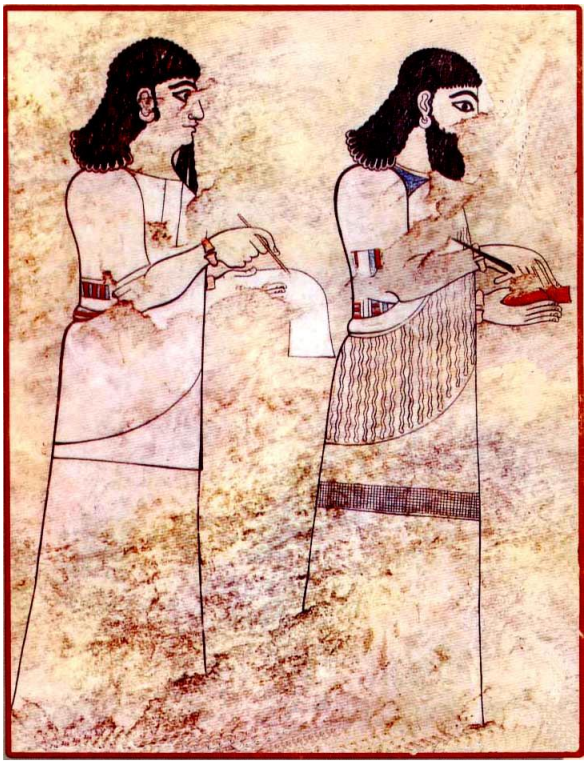

لقد كان **يتوجب على جميع موظفي الدولة معرفة القراءة والكتابة** في عهد حمورابي Hammurabi ملك بابل، وجعل بينه وبينهم نظاما بريديا خاصا من أجل أن يرسل لهم أوامره الإدارية. كما كان واضحا أن على **الإداريين في قصر ماري؛ أن يكونوا على معرفة جيدة بالقراءة والكتابة**، منذ عهد يخدون ليم Yahdun-Lim في أواخر القرن التاسع عشر ق.م، حيث كانت ماري قد اتقنت النظام الكتابي المسماري، وقام يخدون ليم بتبني نظام مدينة أشنونا العراقية الأكثر تطورا حتى ذلك الوقت، حتى أن **حماتيل** Hamatil مسؤول القصر الرسمي الأعلى قد وصف نفسه بأنه (كاتب) على خاتمه. ويبدو أن **أيتور آسدو** Itur-Asdu الذي كان يدير عدة مدن تابعة لقصر ماري كان قد كتب رسالة بنفسه «حتى الآن أنا لم أرسل أي رسالة لسيدي، في الوقت الحاضر أنا سأكتب الأخبار على لوح طيني»، إن استخدام المصدر يكتب بشكل عادي في النص المسماري يشير إلى عمل الكاتب، وهكذا يظهر أن أيتور آسدو كان يكتب مراسلاته بنفسه. كما أن هناك رسالة مرسلة من **أديين داغان** Iddin-Dagan إلى **دارش ليبور**

Darish-Libur وكلا الشخصين مسؤولين رفيعي المستوى في قصر ماري نصها: «في الوقت الراهن إذا كنت أحبك وتحبني حقاً؛ أكتب لي كل الأخبار التي سمعتها من فم الملك وأحضرها إلي» وهكذا يظهر أن كلا المسؤولين كان يجيد القراءة والكتابة. حتى على **مستوى الموظفين الأدنى** كانوا يجيدون الكتابة والقراءة فمثلا هناك الرسالة التي أرسلها أحد المراقبين وهو المدعو أنليل أبوش للملك زمري ليم: «إن الرقم التي أحضرها حمورابي وكعلالوم Kaalalum لمولاي قد تضررت، لذلك أنا لم أستطع قراءتها» ويبدو أن هذه الرقم قد وضعت في مغلفات بعد كتابتها مما تسبب في تضررها أثناء إغلاق المغلف أو فتحه، لكن ما يهمنا هو أن هذا المراقب كان قادرا على الكتابة والقراءة، وهكذا يظهر أن جميع الموظفين في العاصمة وجميع أنحاء مملكة ماري كانوا يجيدون القراءة والكتابة.

رسالة مكتوبة بالخط المسماري موضوعه ضمن مغلف

(Babylonian Collection, Yale University Library)

إن **من الطبيعي أن يكون الموظفون يجيدون القراءة والكتابة**، وإلا لما عملوا في خدمة الشأن العام وفي القصر، وفي مستودعات الحبوب، وفي إدارة قنوات الري، إما الملفت للانتباه أن **ضباط ماري كانوا يجيدون القراءة والكتابة**، حيث تظهر نصوص ماري أن الجنرال **ياسيم إيل** Yasim-El كان متعلما، كتب حوالي أربعين رسالة للملك زمري ليم وغيره، جميعها تتعلق بالمهمات العسكرية والسياسية والدبلوماسية الموكلة إليه، كما تلقى عددا من الرسائل المرسلة إليه، منها رسالة سرية أرسلها له ملكه زمري ليم مع تعليمات صارمة بكتمان ما فيها: «هذه هي المخطوطات إقراءها بنفسك..» هذا يعني أن العادة كانت عند يسيم إيل أن يقوم كاتب بقراءة نصوص المراسلات التي ترده، أما في هذه الحالة هناك توجيه من الملك بضرورة أن يقرأ يسيم إيل المخطوطات بنفسه كلمة بكلمة. لم يكن هذا الضابط في جيش ماري حالة نادرة، فكما هو مشار في كتاب من **منيحوم** Manihum بخصوص المخطوطات التي تلقاها من مملكة أشنونا «في ذلك اليوم الذي وصلتني المخطوطات منهم، أرسلتها إلى سيدي **ياسي داغان** Yasii-Dagan، الذي قرأ لهم في الوقت نفسه، ما قرأته أنا» إن هذه المقولة يمكن أن تندرج في إطار الشك الذي يحوم حول موظف رسمي مكلف بتلقي البريد الخارجي، وبالفعل قام منيحوم بتلقي هذا البريد وتحويله إلى الملك، ولكن أضاف بأن الضابط ياسي داغان كان أيضا قد

قرأ هذه المخطوطات في الوقت ذاته الذي قرائها فيه، وبالتالي هو بريء من تهمة التآمر مع العدو. أما الضابط الذي أظهرته النصوص المسمارية بأنه يجيد القراءة والكتابة فهو **ياسيم داغان** Yasim-Dagan الذي كان ممتعضا من كاتب الملك، حتى أنه هدد بالذهاب شخصيا إلى الملك وقراءة مخطوطاته أمامه «أقسم بالرب الراعي لسيدي: أنا سأذهب وأجعل سيدي يستمع إلى المخطوطة» من الواضح أن يسيم داغان كان يخطط لينال حظوة عند الملك، أو ربما أنه كان يطمع في أن يستلم منصب الوزير. وهكذا يظهر أن جميع ضباط جيوش الشرق القديم كانوا يجيدون القراءة والكتابة لدوافع متنوعة أهمها الدافع الأمني، حيث كان من المفترض أن يقوم الضابط بمراقبة بريده الخاص وما يصله من رسائل ليقوم بقراءتها بنفسه، حفاظا على سريتها بعيدا عن خدمات الكاتب.

كما يبدو أن **صغار الضباط** أيضا كانوا يجيدون القراءة والكتابة فهناك نص من أوشتاشني إيل Ushtasni-El، الذي أعلن بأنه في صدد انتظار أمر مكتوب من زمرلي ليم ولا يستطيع أن يتصرف قبل أن يأتيه هذا الأمر «حتى الآن أنا لم أقرأ مخطوطة سيدي، ولن أترك مدينة إيلان سورا Ilan-Sura». هناك رسالة من يامسوم Yamsum متمثلة بطريقة يظهر منها أن **الجندي** أيضا كان قادرا على القراءة والكتابة: «قبل أن توضع الأقفال على البوابة، أي قبل حلول الليل وصلت مخطوطة من سيدي، رأيتها في تلك اللحظة بالذات وحل الظلام في قلبي» إن استخدام الفعل يرى في هذا السياق يعطي الانطباع بأن يامسوم قرأ الرسالة الموجهة إليه.

ليس صحيحا ما هو شائع أن الكتابة في بلاد الرافدين كانت حكرا على الطبقة المترفة أو على أبناء الكهنة، فالجميع أبناء **الرعية نالوا نصيبه من التعليم، وهناك أكثر من نص يثبت أنهم كانوا يجيدون القراءة والكتابة**، أولا يجب الاستنتاج مما ورد في **خاتمة شريعة حمورابي** ذلك، حيث أعلن: «يجب على المذنب الذي سيحاكم أن يقف أمام تمثالي بوصفي ملكا للعدالة، وأن يقرأ التشريعات المنقوشة، وأن يستمع إلى كلماتي الثمينة، وعلى النصوص أن تبين له وضعه، ويرى هو بنفسه حمكه». إن هذا النص يدفعنا للاعتقاد بقوة أن سكان بلاد الرافدين لم يكونوا أميين، بل كان عندهم المقدرة الكافية للقراءة والكتابة. وهناك **نص ثاني من ماري** يدعم هذا الطرح بقوة، وهو عبارة عن رسالة موجهة من محاسب مدينة ماري الرئيسي المدعو ياسيم سومو Yasim-Sumu لسيده زمري ليم يقول فيها: «لقد أرسلت لتوي إلى سيدي نقش عربة الإله نرجال Nergal، والنقش لهودج الإله **إيتور مير** Itur-Mer، هل يجب أن يكتب نقش عربة الإله نرجال على مقدمة العربة أم على مؤخرتها؟ هل يمكن لسيدي أن يجسد حقيقة النقش الذي يجب أن ينقش على مؤخرة العربة؟ حيث يجب أن يكتب الشعار لمن سيراه ويستطيع قراءته، هل يجب أن يكتب النقش على مقدمة هودج الإله أم على مؤخرته؟ هل يستطيع سيدي أن يكتب لي عبارة منقوشة أو أخرى حتى تكتب هذه العبارات قبل رحيل سيدي؟». تلك الرسالة من ماري لها ميزة مضاعفة، كونها أقل شبهة في طريقة التفكير، وفي الوقت نفسه أكثر واقعية من مقطع شريعة حمورابي المذكور سابقا، ويبدو واضحا بأنه في عقل ياسيم سومو **نصيبٌ للناس المجتمعين في طريق العرض**، والذين ربما كانوا قادرين على قراءة هذه النقوش.

الحياة الاقتصادية في الشرق القديم:

كان السومريون **يعملون بالزراعة**، إذ كان اقتصادهم يعتمد بشكل أساسي عليها، وعلى تربية الحيوانات، حيث تبين الشواهد المادية والكتابية العائدة إلى مطلع الألف الثالث ق.م أنهم كانوا يعملون في فلاحة أراضيهم، ويزرعون الأشجار، ويقومون بأعمال البستنة، **واستعملوا** محراثاً متقدماً على محراث العصر الحجري الذي كان يشبه المعزقة (المجرفة)، أي أنهم كانوا أول من عرف المحراث الحقيقي في التاريخ؛ وكان عبارة عن شفرة لشق الأرض تجرها الحمير. كما صنعوا المسحاة (الرفش) والمعزقة، وكانوا يطلقون كلمة «مار أو مر» على كلا الأداتين. وأنهم قاموا خلال النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد **بتربية بعض الحيوانات** كالأغنام والأبقار والماعز، وربوا الدجاج والنحل، وربوا الثيران والحمير وربطوها إلى النير ودروبها على جر المحراث. وخدمة للزراعة قاموا **بمشاريع الري** المتمثلة: بشق قنوات الري وبناء السكور والترعات والسدود؛ التي صنعوها من الطين والأعواد المتشابكة.

وهكذا ويمكن **إعادة رسم صورة واضحة للزراعة في سومر** من خلال الكتابات المسمارية، ومن خلال الأختام الأسطوانية التي تعرض لأعمال الحراثة والبستنة، ومن الاكتشافات الأثرية للأدوات المستخدمة في حراثة الأرض، ومن بقايا أقنية الري ومخازن الحبوب. ومن خلال هذه المصادر صار بوسعنا معرفة أن السومريون زرعوا **الحنطة** وصنعوا الخبز منها، وعرفوا **الشعير** الذي صنعوا منه البيرة، وزرعوا **الكتان** ونسجوا الملابس منه، وزرعوا **السمسم** الذي كان المصدر الأول لزيت الطعام عندهم، بينما انحصر استخدام زيت **الزيتون** على أعمال المسح المقدسة في المعابد، وزرعوا أصنافا مختلفة من الخضار (كالبصل والخيار) والبقل (العدس والبازلاء والفاصولياء). وزرعوا **الأشجار** المثمرة مثل النخيل والكرمة والرمان والتفاح والتين والكمثرى. وربى السومريون **الحيوانات** الداجنة مثل الأبقار والخراف والماعز والحمير[1].

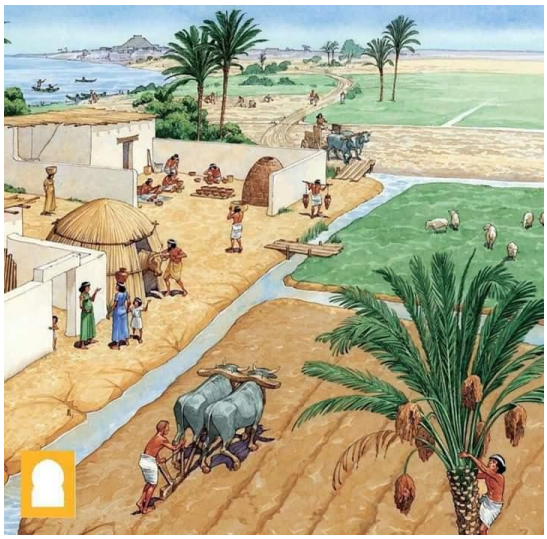

الزراعة في سومر

(1) فويتك زاماروفسكي، في البدء كانت سومر، وزارة التعليم العالي، جامعة دمشق ٢٠١٥م، ص١٨١، ١٨٢.

لقد شهدت الزراعة تطورا مستمرا خلال العصرين السومري والأكادي، إلا **إن تطورا ملحوظا في الأعمال الزراعية** كان قد حدث مع نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد، نظرا للتطورات **السياسية** والاقتصادية التي حصلت في تلك الحقبة من الزمن، هذا فضلا عن **مشاريع الري** واتساعها من خلال شق القنوات وبناء السدود، وتطور **الأدوات** المستعملة في الزراعة، **مما** ساهم في تنوع المحاصيل وزيادة الإنتاج. وبالمجمل يمكننا القول **إن الزراعة في العصر الأموري** تطلبت جهودا كبيرة ومضنية لكنها درت أرباحا وفيرة على الدولة؛ التي قام اقتصادها أساسا على الزراعة بالدرجة الأولى، فكانت أهم الحبوب التي زرعها البابليون هي القمح والشعير والعدس والحمص والكتان والبازلاء والسمسم، وقد شاع استخدام الحبوب كمادة للمقايضة التجارية. أما الأشجار التي اهتم البابليون في زراعتها فكانت النخيل وكان رمزا لحضارة بلاد الرافدين بالإضافة إلى التين والرومان والتفاح.

كانت **ملكية الأراضي الزراعية** تعود للدولة، كما أصبحت الملكية الفردية أمرا شائعا في هذا العصر، وكان يحق لأصابها بيعها أو توريثها أو رهنها كما يشاؤون. إلا أن معظم الأراضي الزراعية الخصبة والمساحات الواسعة منها كانت بيد الملك وحاشيته[٢]. ولا يجوز بيع أراضي الدولة أو توريثها أو مبادلتها مع أرض أخرى، وإنما كانت تعطى لأفراد لاستثمارها شريطة أن يشاركوا في حملات الملك العسكرية حين الطلب، وإذا تخلف أحدهم تكون عقوبته الموت. وهناك مواد في قانون حمورابي تتحدث عن شروط تأجير الحدائق والحقول وتحدد عقوبات التقصير والإهمال. وبالإضافة إلى أرض الدولة كان هناك أرض المعبد[٣].

كما ازدهرت مختلف أنواع **الحرف والصناعات التقليدية** عند السومريين، وبالمجمل فقد برع سكان الشرق القديم في إجراء عدد من **الصناعات المتنوعة**، كصناعة العقاقير الطبية، والأصبغة والدهان والصابون والعطور وصناعة المراهم ومساحيق التجميل، وبرعوا في صناعة العجة والخمور، وفي سبك المعادن وطلائها، وفي صناعة الزجاج والتزجيج، وصناعة المجوهرات الصناعية[٤]. وقاموا بصناعة الأسلحة والألبسة والفخار والحصر والأدوات الزراعية، وأبدعوا في الصناعات الخشبية كالأثاث المنزلي والقوارب، وابتكروا العربة والدولاب. وكان الغزل والنسيج والخياطة والتطريز من أهم الحرف التي اختصت بها النساء. لقد كان لكل **معبد** عدد من المصانع (المشاغل) البسيطة التي تعمل فيها عدد من الصناع والحرفيين لإنتاج السلع التي يحتاجها المعبد وبيع الفائض منها كجزء أساسي من واردات المعبد؛ منها عدة ورشات مختلفة للنجارة والنحت والدباغة وغيرها من الورش التي كانت تحتوي على الصبيان والنساء، فضلا عن وجود الرقيق وجميعهم يخضعون لسلطة المراقب العام للمشغل[٥].

(٢) فائز الحسناوي، المهن الاقتصادية في العصر البابلي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد ٢٠٠٩، ص٤٠.

(٣) فيصل عبد الله، عيد مرعي، المدخل إلى تاريخ الحضارة، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٨م، ص٢٥٠.

(٤) جباغ قابلو، عماد سمير، تاريخ الوطن العربي القديم (العراق سورية مصر)، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٨م، ص١٨٧.

(٥) رغد جمال الجبوري، الصناعة في بلاد الرافدين، دار الكوثر، بغداد ٢٠١٦م، ص١٠.

تُعد **صناعة الفخار** من أهم صناعات الشرق القديم، وعدها كثير من علماء التاريخ؛ ثورة حضارية يؤرخ بها، قد **ابتكر** إنسان الشرق القديم الفخار لحفظ الفائض من انتاجه الزراعي؛ نظراً لأن القوارض والحشرات لا تستطيع أن تقرض أو تثقب الفخار لتصل إلى الحبوب أو الطعام المخزون فيها. وصناعة الفخار صناعة قديمة في بلاد الرافدين، إلا أن **الخزف** الحقيقي (أوان من الصلصال تم شيها في أفران) لم يظهر لأول مرة؛ إلا في الفترة ما بين ٦٥٠٠ – ٦٠٠٠ سنة ق.م. لقد كان السومريين أول من ابتكر **دولاب** الفخار سريع الدوران نحو سنة ٣٥٠٠ ق.م، والذي كان عبارة عن قرص مستدير يدوره صبي الخزاف، بينما يقوم الخزاف باستخدام كلتا يديه في العمل. وتم إنتاج أشكال مختلفة من **الأواني الفخارية** كالأقداح والصحون الجرار، كما قاموا بطلاء منتجاتهم الفخارية وزخرفتها، وحملت بعض الأنية الفخارية أشكل هندسية كالخطوط المستقيمة والمتقاطعة، أو مشاهد طبيعية لثيران وماعز وأسماك وطيور وزواحف ونباتات متنوعة وأوراق أشجار، وكانت هذه المشاهد مصبوغة بلون واحد أو لونين، وذلك باستخدام أكاسيد المعادن.

كما عرف السومريون **صناعة الملابس**، وكان لهذه الصناعة أهمية كبيرة في بلاد الرافدين، لأنها كانت توفر واحدة من أهم احتياجات الفرد من الثياب الصوفية والكتانية وأخيرا القطنية، وكان **للبيئة الجغرافية** دور كبير في توفير المواد الأولية اللازمة لهذه الصناعة نظرا لاتساع تربية الماشية وبالتالي كثرة المنتجات الحيوانية من الصوف والشعر، ونظرا لاتساع الزراعة ووفرة انتاج العراق من الكتان والقطن، وكان القطن أكثر انتشارا من الكتان نظرا للجهود الكبيرة التي كانت تتطلبها زراعة الكتان. وقد كشف عن قطع نسيجية من الكتان في مقبرة أور، وعثر على قطع نسيجية مشابهة في مدينة أوروك[٦]. ومن **أدوات صناعة الملابس** التي عرفها السومريون: المغزل المصنوع من الخشب، والمغزل المصنوع من العظم أو المعدن، والمغزل هو الآلة الوحيدة القادة على تحويل المواد الأولية المعدة للنسيج إلى خيوط[٧]، وعرفت الأقمشة الملونة وتمت صباغتها بواسطة الشب والقرمز.

كما كشف عن ورشات للغزل والنسيج ملحقة **بالمعبد** لتأمين حاجات العدد الكبير من الكهنة، كان منها ورشة النسيج التي كشف عنها قرب المعبد في مدينة أور (في عصر الاحياء السومري) والذي كان ينتج اثني عشر نوعاً من أنواع النسيج الصوفي، منها الصوف المغزول والصوف الممشط والصوف الملفوف حول الخشب، والصوف الملفوف على هيئة كرات، وكان الغزل يتم في بيت الغزل بواسطة رجال ونساء بإشراف رئيس مهنة ماهر، وتذكر الألواح الطينية المكتشفة في هذا المعمل أسماء النساء اللواتي كن يعملن فيه، وما كانت تستهلكه كل واحده منهن من الصوف وكمية إنتاجها وما كان يعطى لها من أجر ومؤن[٨]، أو كان يتم الغزل في البيت بواسطة ربة المنزل. وكانت التطورات التي حصلت لهذه الصناعة في العصر البابلي القديم تعد استمرارا لما كان موجودا في العصور السابقة، ولاسيما عصر سلالة أور الثالثة[٩]، وهناك لوحة منقوشة بالنحت البارز أسلوب العصر الآشوري الحديث تظهر فيها امرأة

(٦) فائز الحسناوي، المرجع السابق، ص١١٤.

(٧) رغد جمال الجبوري، المرجع السابق، ص٤٩

(٨) نور الدين حاطوم، أحمد طربين، صلاح مدني، نبيه العاقل، موجز تاريخ الحضارة، ج١، حضارات العصور القديمة، مطبعة الكمال، دمشق ١٩٦٥م، ص١٦٤.

(٩) فائز الحسناوي، المرجع السابق، ص١١٥.

جالسة على كرسي وهي تقوم بعملية الغزل بأسلوب وطريقة نعرفها حتى اليوم ويظهر في اللوحة بوضوح المغزل والقرص وخيوط الغزل الملفوفة فوق القرص وعلى جسم المغزل(١٠).

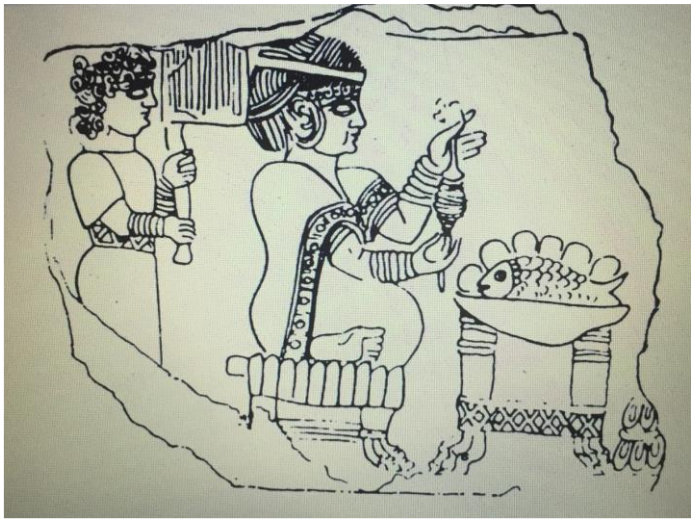

سيدة تجلس على كرسي وتقوم بصناعة الصوف.

إن أهم **المراحل التي تتضمنها صناعة صبغ النسيج** قبل غزله هي: (التنظيف، القصر، الصباغة)، وتشمل عملية التنظيف وضع المواد الأولية للغزل في أحواض غسيل خاصة وتعامل بواسطة الصابون والبوتاس أو الشب. أما عملية القصر فتشمل وضع النسيج في حفر خاصة بالقصر ثم تضرب بالعصي وتنشر في الشمس، وإن تعرض النسيج للشمس يساعد في عملية قصره. ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي عملية الصباغة حيث يتم نقع النسيج في خلاصة الشعير (البيرة)، ثم وضعها بعد ذلك في قدر نحاسي وتسخينها تدريجيا على نار هادئة مع الصبغة ومثبتها، هذا ويتم تحريك النسيج ليتم توزيع الصباغ على كامل النسيج، وقبل إخراج الصوف من القدر يضاف إليه الماء، ثم يغسل أخيراً ليجف(١١).

لقد عرف سكان بلاد الرافدين العديد من **الصناعات الغذائية** مثل صناعة الألبان، صناعة الخمور والبيرة، وحفظ المواد الغذائية، وكانت صناعة الألبان أهمها، ويبدو أن سكان بلاد الرافدين قد عرفوا صناعة الحليب ومشتقاته منذ عصر العبيد في الألف الرابع قبل الميلاد، وقد قدمت الشواهد الأثرية دليلا مباشرة على عملية تصنيع الحليب في الألف الثالث قبل الميلاد، حيث ظهر على واجهة معبد الإلهة ننخرساك مشاهد من عملية تصنيع الحليب؛ من خلال ما احتوته من تفاصيل حلب الأبقار وصناعة الزبدة، كما أشارت الشواهد إلى أن الرجال هم من كانوا يقومون بأعمال الحلب، وكان يتم وضع الحليب ونقله في أوعيه جلدية، وقد استخدم حليب الأبقار والماعز في صناعة الجبن والزبدة واللبن، ولم يكن الحليب مرغوبا به، وكان يفضل ممزوجا مع مواد غذائية نباتية وحيوانية أخرى كالزيوت والقشطة والعسل، وفقا لمعتقدات كان يؤمن بها إنسان الشرق القديم، ودخل الحليب في عدة صناعات دوائية، لا بل إن

(١٠) رغد جمال الجبوري، المرجع السابق، ص٤٩

(١١) فرج حبة، الكيمياء وتكنولوجيتها في العراق القديم، مجلة سومر، ج١و٢، مج ٢٥، بغداد ١٩٦٩م، ص١٠١.

أغلب استعمالاته كانت لأغراض طبية. فعلى سبيل المثال إذا كانت معدة إنسان مضطربة ولا تتقبل أي طعاما أو شراب، تأخذ بذور الطرفاء وتمزج مع العسل واللبن الخاثر ليأكلها المريض فيشفى(١٢).

أما صناعة **النبيذ** فكانت تتم غالبا من السمسم والفواكه المختلفة، وكانت طريقة الصنع تتم بنقع التمر والتين والزبيب والخميرة بالماء، ويضاف إليها مزيج العسل أحيانا، ويصفى ويعطر (ويتم تعطير النبيذ بواسطة النباتات العطرية كشجرة الأكاسيا Cassia)، وكان الشائع نوعان من النبيذ هما الأحمر والأبيض. بينما كانت **البيرة** هي المشرب الثاني المفضل لسكان الشرق القديم، وكان مشروبا مفضلا للآلهة أيضا، وكانت تصنع من الشعير وذلك بنقعه بالماء، ثم تعرض لنار هادئة (الغرض من هذه العملية تنشيط عمل الإنزيمات الضرورية في التخمير) ويفصل الشعير بعد ذلك ويجفف في الفرن ثم يسحق ويغربل (لفصل الشعير عن قشره). وهناك أنواع كثيرة من البيرة تعد بالعشرات تختلف أسعارها باختلاف آلية صناعتها وتخميرها وتعطيرها وما شابه ذلك(١٣).

وشملت الصناعات الغذائية **صناعة الزيوت**، والتي تعد من المواد الغذائية الضرورية في حياة سكان بلاد الرافدين واحتلت هذه الصناعة مكانة مرموقة ومهمة في المجتمع العراقي القديم، بسبب كثرة وتنوع استعمالاته، ولأنه يمثل أحد أهم المواد التجارية، وقد ارتبطت صناعة الزيوت بمعرفة سكان الشرق القديم بالزراعة ووجود النباتات الزيتية وأيضا بتدجين الحيوانات والاستفادة من منتوجاته كالسمن، ويعتقد أن سكان الشرق القديم قد استخدموا الزيوت الحيوانية (السمن) قبل الزيوت النباتية، وذلك لسهولة الحصول عليها مقارنة بالزيوت النباتية، وبسبب كثرة المصادر الحيوانية وتنوعها، مما أدى إلى استخدامها في مختلف أوجه الحياة المعيشية وكوصفات طبية لعلاج بعض الأمراض، وكان زيت السمسم هو أهم مصادر الزيوت النباتية في بلاد الرافدين، وتظهر النصوص البابلية الكاشية أن الزيوت قد دفعت أجورا للعمال إلى جانب الخبز والجعة، واستخدمت الزيوت النباتية في تزييت العربات والأبواب وصب المعادن وفي الإنارة ومعالجة الجلود والصوف. واستخدم زيت الزيتون في الطقوس والمراسم الدينية والاحتفالات(١٤).

وقد صنع السومريون **أدوات مختلفة** كالأدوات الزراعية (كالرفش والمعزقة والمنجل)، وصنعوا القوارب، وعرفوا صناعة الحصر التي كانت تجدل من القصب، وكانت تستخدم عوضا عن السجاد، وعرف الأموريون صناعة السجاد وتعد نصوص ماري والنصوص البابلية القديمة الأغنى في الحديث عن هذا المنتج. وبالمجمل يمكننا القول إن سكان بلاد الرافدين لم يعتمدوا على القصب في صناعة الحصر فقط بل صنعوا منه السلال والقوارب وأعواد السهام والرماح، وصنعوا منه أدوات صيد السمك، وبنوا منه الأكواخ، وغطوا به سقوف بيوتهم، كما استخدموه في بناء السدود، وفي صناعة توابيت دفن الموتى.

(١٢) رغد جمال الجبوري، المرجع السابق، ص١٥

(١٣) فرج حبة، المرجع السابق، ص٩٧.

(١٤) رغد جمال الجبوري، المرجع السابق، ص١٧

كما قام السومريون بمعالجة **المعادن**، حيث عثر على مخلفات أثرية معدنية متنوعة في بلاد سومر، كان أهمها الأسلحة البرونزية التي صنعها السومريون بخلط معدن النحاس بمعدن القصدير، كما استخدموا معدن الفضة بمثابة النقود وصبوا الذهب[١٥]. وكانوا مطلعين للغاية بالنسبة لاستخلاص النحاس من اختزال خاماته بواسطة النار إلى إذابته وصبه بأشكال مختلفة[١٦]، وتؤرخ صناعة معدن النحاس بالألف الرابع قبل الميلاد، وكان استخدامه الأول في صناعة السلاح كرؤوس الحراب وكان يصنع بالطرق دون التسخين، وعرف صهر النحاس منذ عصر جمدة نصر مما سمح بتصنيعه بأشكال وحجوم عديدة بواسطة القوالب المختلفة[١٧]، وقد عثر علماء الآثار على العديد من الأفران المتنقلة والثابتة والأنية التي استخدمت لصهر المعادن وإعادة تشكيلها. ويبدو أن السومريين قد استوردوا الخامات المعدنية اللازمة لصناعاتهم من خارج بلادهم التي تفتقر لمثل هذه الخامات[١٨]، وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن العديد من الأدوات التي استخدمت في صهر المعادن والتعدين، كالهاون الحجري الذي كان يستخدم لسحن وطحن الخامات المعدنية، كما عثر على قدور صهر النحاس[١٩]. ربما كانت الأناضول مصدر النحاس الأول لبلاد الرافدين طوال الألفين الثالث والثاني ق.م، وربما جلب النحاس من مناطق أخرى أيضا، حيث تحدث النصوص المسمارية التي أتت من مدينة لغش السومرية في القرن الرابع والعشرين ق.م عن تاجر يدعى أور–أنكي Ur-Enki في عهد الملك (لوغال–لاندا) Lugalanda (٢٣٥٨– ٢٣٥٢ ق.م)، جلب من دلمون نحو ١٠٠ كلغ من النحاس (٢٣٤ مينا) لزوجة حاكم المدينة، وفي المرة الثانية جلب من دلمون نحو ٨٥كلغ من النحاس (٢١٤ مينا) لزوجة حاكم المدينة أيضاً، وهناك نص مسماري يتحدث أن التاجر ذاته قد أحضر لحاكم المدينة (لوغال لاندا) من دلمون نحو ٦ كلغ من النحاس (١٤ مينا). ويبدو أن أور–أنكي كان يقوم باستيراد النحاس من دلمون، وفي المقابل كان يصدر لها منتجات بلاد الرافدين المتنوعة؛ وكان أهمها القمح والشعير والصوف والفضة.

أما بالنسبة **للزجاج** فمن المعتقد أن صناعته بدأت في بلاد الرافدين، فأقدم قطعة زجاجية هي العصا الزجاجية الخضراء التي عثر عليها في مدينة أشنونا (تل أسمر) والتي تؤرخ بنحو ٢٦٠٠ ق.م، وكذلك قطعة الزجاج الزرقاء التي عثر عليها في مدينة أريدو (في أقصى جنوب العراق)، وتؤرخ بنحو ٢١٠٠ ق.م وهي عبارة عن كتلة زجاجية غير مشكلة. وقد عثر في أحد المواقع الأثرية في شمال بلاد الرافدين (تل عمر) على نص مسماري مؤرخ بالقرن ١٧ ق.م يحدد المقادير اللازمة لتحضير مادة التزجيج (زجاج، رصاص، نحاس، أملاح، كلس). أما القطع الزجاجية المشكلة فقد أتت من شمال بلاد الرافدين وتؤرخ بالقرن ١٦ ق.م، وعومل الزجاج كمادة فاخرة، وأصبح استخدامه واسعا في الشرق القديم منذ العصر الآشوري الوسيط، أي منذ منتصف الألف الثاني ق.م؛ حيث عثر على كميات تعتبر وتقنيات ذلك العصر كبيرة. ولم يعرف النفخ في الزجاج إلا في الألف الأول ق.م، ومن أقدم الآثار المتبقية من الألف

(١٥) فويتك زاماروفسكي، المرجع السابق، ص١٨٤، ١٨٥.
(١٦) فرج حبة، المرجع السابق، ص٩٢.
(١٧) رغد جمال الجبوري، المرجع السابق، ص٧٦
(١٨) فويتك زاماروفسكي، المرجع السابق، ص١٨٥.
(١٩) رغد جمال الجبوري، المرجع السابق، ص٤٦.

الثامن ق.م كأس من عهد شاروكين الثاني، من زجاج أخضر عليه صورة أسد مجنح. وأخيرا عُثر في مكتبة آشور بانيبال على وصفات لصناعة الزجاج وتولينه باستخدام الرصاص أو النحاس. وهناك نصوص مشابهة تعطينا وصفات لصباغة الصوف وكذلك الحجارة[٢٠].

وقد استخدم الآشوريون البرونز بكثرة في منتصف الألف الثاني ق.م حيث كانوا يصنعون أسلحتهم وأدواتهم من هذه السبيكة حتى بداية الألف الأول ق.م، عندما بدأوا باستخدام معدن الحديد، حيث تمكن سكان الرافدين من كربنة الحديد واستغلاله في صناعة الأسلحة. وكان البرونز المصنوع من خلط القصدير مع النحاس من أجود أنواع البرونز، بعكس البرونز المصنوع من خلط النحاس بالرصاص، وكان سكان الرافدين يستوردون القصدير من بلاد عيلام وأرمينيا[٢١]. وتثبت رسالة مرسلة من الملك الكاشي كادشمان إنليل الأول نحو سنة ١٣٧٥ ق.م إلى الفرعون المصري، قدرة البابليين تمييز الذهب الجيد من الذهب المشوب[٢٢].

كما صنع السومريون الأختام الأسطوانية، وابتكار الاختام الأسطوانية إنجاز حضاري يعادل ابتكار الكتابة المسمارية، جمع ما بين التقدم التفني والازدهار الاقتصادي، وكان من مقتنيات الإنسان السومري الضرورية، والختم الأسطواني هو عبارة عن خرزة أسطوانية تصنع من الأحجار المتنوعة والتي تتراوح أطوالها ما بين ٢,٥ و٧,٥ سم، وتتراوح أقطارها ما بين ١سم وبضعة مليمترات وتكون مثقوبة طولياً لغرض تعليق الختم بالرقبة، وقد حفر النحات على سطحها موضوعات دينية ودنيوية مختلفة. وكان الخاتم الأسطواني أكثر ملائمة من الختم المنبسط فعند دحرجته على سطح من الطين الرطب، فأنه يترك الرسوم المنحوتة عليه؛ بارزة على هذا السطح الطيني كعلامة فارقة. وكانت أولى الألواح التي وصلتنا ممهورة بطبعات الأختام الأسطوانية تعود إلى الألف الرابع ق.م في عصر أوروك[٢٣].

نماذج من أختام أسطوانية متعددة

(٢٠) جباغ قابلو وعماد سمير، المرجع السابق، ص١٨٧.
(٢١) رغد جمال الجبوري، المرجع السابق، ص٧٨
(٢٢) جباغ قابلو وعماد سمير، المرجع السابق، ص١٨٧.
(٢٣) رغد جمال الجبوري، المرجع السابق، ص٢٩

لقد ساهم فائض الإنتاج الزراعي السومري من المنسوجات الصوفية والكتانية ومن الجلود والمواد الغذائية وتطور الصناعات والحرف والطلب المتزايد على معادن النحاس والقصدير إلى **ميلاد التجارة**، ولاسيما التجارة الخارجية، وكان **التاجر** يدعى باللغة السومرية دامكار DAM-GAR وكانت مدينة أور ميناء السومريين الرئيسي باتجاه الخليج العربي. لقد استوجب تطور التجارة تطور وسائل **النقل**، ويمكننا أن نقسم طرق النقل عند السومريين إلى طرق نقل برية (التي كان الحمار وسيلتها الأساسية)، وطرق نهرية (والتي كانت الطوافات أو القوارب وسيلتها الأساسية)، إن استخدام **الطوافات** في النقل النهر قديم قدم الإنسان ذاته، لكن السومريين طورها بما يتناسب مع الملاحة في نهري دجلة والفرات، ويظهر من مقدمة قانون أورنامو (مؤسس سلالة أور الثالثة) حرص الدولة على حماية السفن التجارية، وجعل مرساها في موانئ المدن آمنا ومحميا. وكانت **ترافق القوافل التجارية** كتائب من الرجال المسلحين لحماية هذه الأرزاق من قطاع الطرق الذين كانوا يطمعون بالسطو عليها[٢٤].

أما الابتكار الذي كان السومريون سباقين له في مجال النقل البري هو **اختراع الدولاب** (**العجلة** UMBIN) **والعربة**، وقد تعرفنا على هذا الابتكار الجديد من خلال كسرة عمود من الحجر الجيري من فترة سلالة أور الأولى نحو ٢٥٠٠ ق.م، وتعرفنا عليه كذلك من خلال اللوحة الفسيفسائية التي اكتشفت في مقبرة أور الملكية والتي عرفت براية أور[٢٥]، وكانت العربة تتألف بشكل أساسي من قطعتين صندوق العربة والعجلات، وقد تنوعت أحجام وأشكال هذه العربات؛ منها العربة ذات الأربع عجلات والتي كانت أول ظهور للعربات، ثم ظهرت العربة ذات العجلتين. لقد ظل استخدام العربات في النقل محدودا بسبب حاجتها إلى طرق معدة مسبقا لسيرها، وإن معظم المدن في بلاد الرافدين منتشرة على ضفاف الأنهار، ترويها وتحيط بها القنوات وشبكات الري والحقول والبساتين، هذا ناهيك عن طبيعة تربة البلاد الرسوبية، وكل هذا يبين صعوبة مد طرق معبدة، فمد طريق يتقاطع مع قنوات المياه وشبكات الري يتطلب عشرات الجسور والقناطر مع صيانتها الدائمة وحمياتها، ولاشك أن ذلك يحتاج إلى نفقات باهظة، وقد لعبت الأنهار وسهولة تسيير المراكب فيها دورا كبيرا في الاستغناء عن العربات واستخدامها للنقل، لذلك بقيت العربات مرتبطة ببعض الاحتفالات والطقوس الدينية أو لاستخدامات القادة والملوك في المعارك كما فعل الآشوريون[٢٦].

(٢٤) رضا جواد الهاشمي، التجارة، حضارة العراق، ج٢، بغداد ١٩٨٥م، ص٢٢٧.
(٢٥) فويتك زاماروفسكي، المرجع السابق، ص١٨٦.
(٢٦) رضا جواد الهاشمي، التجارة، حضارة العراق، ج٢، ص٢٢٥، ٢٢٦.

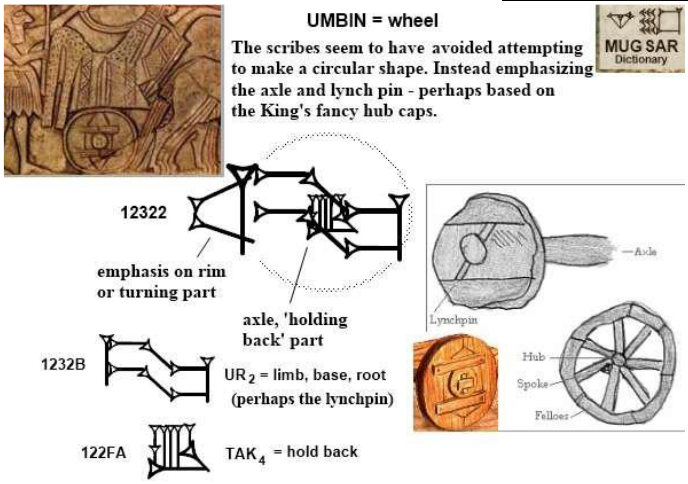

نتيجة لتوسعات شاروكين وحفيده نارام سين امتدت حدود **الإمبراطورية الأكادية** إلى بلدان قاصية وصارت السفن والقوافل التجارية تنقل البضائع والمواد الأولية إلى العاصمة أكاد فانتعشت التجارة، حتى أن التجار الأكاديين وصلوا إلى قلب بلاد الأناضول منذ زمن الملك شاروكين الاكادي، وتاجروا هناك رغم بعد المسافة عن بلادهم، التي كانت تزيد على الألف كيلو متر، ورغم خطر الطريق والضرائب الباهظة التي كانوا يدفعونها. أما أهم المواد التي تاجر بها الأكاديون مع سكان بلاد الأناضول فقد تمثلت بشكل أساسي بمادة القصدير والفضة والنحاس، كان العراق بحاجة إلى النحاس، والأناضول غني به وكذلك بالفضة (جبال طوروس)، بينما كان يفتقر إلى القصدير، والقصدير كان مهما بالنسبة لسكان الشرق القديم في سبيل صناعة معدة البرونز (نحاس + قصدير = برونز) وكان التجار الأكاديون يؤمنون حاجيات الأناضول من مادة القصدير من مناطق تقع على نهر دجلة، كما قام التجار الأكاديون بتصدير المنسوجات الصوفية إلى الأناضول حيث كانت صناعتها في بلاد الرافدين متقدمة، مقابل صناعتها الرديئة في الأناضول، وكان الحمار وسيلة النقل الأساسية في القوافل التجارية العراقية البرية التي تقصد الأناضول[٢٧].

في مقابل تجارة الشمال البرية تحدثت النصوص المسمارية الأكادية عن تجارة مدينة أكاد «جاء السومريون بسفنهم المشرعة إلى أكاد، والمارتو (الأموريون) الذين لم يعرفوا زراعة الحبوب؛ جلبوا إليها أجود ثيرانهم وأغنامهم، والملوخيون، أهل البلاد السوداء جلبوا بضائع البلاد الأجنبية، بينما جلب العيلاميون كل أنواع السلع محملة على ظهور الحمير»[٢٨]، كما جلبت سفن دلمون وماجان التي كانت ترسوا في ميناء أكاد، أخشاب الصاج والبلوط وحجر المرمر والدايوريت واللازورد ومعادن النحاس والذهب والزنك. أما تجارة الغرب فقد تركزت مع لبنان، وكان الهدف الأساسي منها الحصول على الأخشاب الضرورية لبناء السقوف وفي القصور والمعابد والجسور، بحكم أن العراق يفتقر إلى الغابات، كان لا بد من استيرادها من لبنان ولاسيما أخشاب شجر السدر. في حين تركزت تجارة المنطقة الشرقية (عيلام) على الأحجار الكريمة لغرض تزيين الأبنية الفخمة والمعابد[٢٩].

(٢٧) فوزي رشيد، سرجون الأكادي أول إمبراطور في العالم، الموسوعة الذهبية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٩٠م، ص٦٤.
(٢٨) فاضل عبد الواحد علي، سومر أسطورة وملحمة، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٩م، ص٧٥.
(٢٩) فوزي رشيد، سرجون الأكادي، ص٧٦.

بينما سمح **موقع بلاد آشور** المميز لها بالتحكم بطرق المواصلات والقوافل التجارية بين الأناضول وبلاد الرافدين، لقد كانت بلاد آشور ملتقى لطرق القوافل التجارية القادمة من الهضبة الإيرانية إلى جبل حمرين وجبل سنجار، وكان بوسع التجار السوريين بواسطة قوافل الحمير من نقل بضائعهم مروراً بآشور عبر طرق التجارة الرئيسية في شمال سورية والخابور ومنطقة الفرت الأوسط. حيث كانت قوافل الحمير المؤلفة في بعض الأحيان من ٢٠٠ حمار تصل آشور بالمراكز التجارية الآشورية المنتشرة في الأناضول وكانت التجارة الآشورية بأيدي الأسر الآشورية الغنية، وكان للآشوريين بعثات تجارية ومستوطنات في كبادوكيا في الأناضول والتي بلغ عددها حوالي ٢٥ مركزاً، وتتألف هذه المراكز من بيوت كبيرة ومخازن وغرف للمحفوظات، وقد دعيت هذه المستوطنات باسم "كاروم" (محطة تجارية) وأهم هذه المستوطنات كانت كانيش (قرب قيسارية)، وتمتعت هذه المستوطنات بحكم ذاتي إلا أنها كانت تدفع الضرائب بانتظام. وقد بينت الألواح المسمارية المكتشفة في كاروم كانيش (نحو ١٤ ألف لوح) بأن المنسوجات كانت أهم الصادرات الآشورية لبلاد الأناضول بينما كان الخشب والنحاس والفضة أهم المواد التي تستوردها آشور من الأناضول، بينما استورد الآشوريون القصدير من عيلام. وتتوزع النصوص بين عقود تجارية ووثائق تتعلق بالقروض وما يرافقها من مشاكل قانونية تحتاج لحل. وكان على التجار الآشوريين دفع الضرائب المترتبة عليهم لأمراء المناطق المحلية التي تمر بها قوافلهم[٣٠].

لقد ازدهرت التجارة في بلاد الرافدين في العصر **البابلي القديم** حيث بلغ التوسع التجاري منذ عهد حمورابي حدا عظيما؛ نتيجة التوسع الذي بلغته الإمبراطورية البابلية، وقد ربط حمورابي التجارة بالقصر، وعمل على تنميتها وأخضعها لإدارته وأشرف على تمويل القوافل التجارية وشجع التجارة مع إقليم البحر المتوسط، ليستورد منها الحجر والمعادن وأنواع الأخشاب، كما شق القنوات المائية في بلاده لتسهيل التبادل التجاري والنقل النهري[٣١]. وأصبحت بابل مركز التجاري الأول في الشرق القديم بفضل موقعها المتوسط، وكونها عاصمة الإمبراطورية البابلية، واختصت مدينة سيبار بتجارة القصدير، واشتهرت كل مدينة في الإمبراطورية البابلية بنشاط تجاري معين، وقد بلغ من تقدم التجارة في بابل أن قانون حمورابي ضم ١٢٠ مادة للمعاملات التجارية[٣٢]، فكل عملية تجارية يجب أن تكون موثقة بعقد وشهود، وكان التاجر ويدعى تمكارم، وكان هناك شمالوم وهو بمثابة تاجر صغير متجول يتنقل من مكان إلى مكان، ومارس التمكارم الإقراض العيني والنقدي، وقد حدد حمورابي سعر الفائدة بـ ٣٣،٣ لقروض الحبوب و٢٠ % للقروض النقدية، ومما سهل عملية التجارة وجود شبكة من الطرقات النهرية والبرية. وفي المقابل تطرقت قوانين حمورابي إلى بعض المخاطر التي يتعرض لها التجار مثل الخسائر الناتجة عن اللصوص والأعمال الإلهية.

لقد خضعت الطرق التجارية لحماية الدولة، وكانت الدولة حريصة كل الحرص على تأمين الطرق التجارية لما كانت تحققه للدولة من منفعة اقتصادية تعود عليها بالضرائب والمكوس الوفيرة، أو أن هذه الطرق كانت تحت رعاية أمراء مناطق صغار مرتبطين فيما

---

(٣٠) جباغ قابلو، عماد سمير، المرجع السابق، ص٩٣

(٣١) أحمد أمين سالم، تاريخ الشرق الأدنى القديم (العراق، إيران، آسيا الصغرى)، درار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٠م، ص١٠١

(٣٢) جبار عبد جبيل، التجارة الخارجية للعراق في العصر البابلي، مجلة البحوث الجغرافية، العدد٩، جامعة الكوفة، ٢٠٠٨م، ص٣٤٩

بينهم بجملة من التحالفات السياسية، واتفاقيات تجارية واضحة مع أصحاب القوافل التجارية، بهدف تأمين طريق القوافل التجارية مقبل ضرائب معينية، مقبل الاستفادة من الآبار والأمان الذي توفره القوى المنتشرة على طول الطريق، وتشير النصوص المسمارية العائدة إلى العصر البابلي القديم إلى دور تلك الاتفاقيات التجارية والتحالفات السياسية في خدمة حركة التجارة والنقل التجاري بين هذه الممالك، ورغم ذلك هناك إشارات إلى تعرض القوافل التجارية إلى أعمال السرقة ولمخاطر الطريق تتردد في أكثر من موضع في رسائل التجار ووكلائهم وحتى بين وعماء المدن والدول[٣٣]. عموما لقد رافق التجارة نشاط في عمليات الصيرفة والإقراض وتحرير العقود وقوائم البيع وغير ذلك مما يتعلق بالتجارة.

(٣٣) رضا جواد الهاشمي، التجارة، حضارة العراق، ج٢، ص٢٢٦.